عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العددان 58-59 / 1-16 تشرين الأول 2015

مدينة حلب
عدسة أحمد بريمو - خاص عين المدينة

3ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

في مغزى التدخّل الروسيّ ونتائجه

بعد أسبوعين على التدخل الجويّ الروسيّ في سورية لا يبدو الأمر بحاجةٍ إلى كثيرٍ من التحليل. ببساطةٍ، تريد موسكو إخماد الثورة، بعد أن تباعد هذا الحلم عن ناظري بشار الأسد وقوّاته المحلية وحليفه الإيرانيّ وميليشياته الطائفية، وصاروا يأملون في تحسين المواقع وإجراء تعديلاتٍ جزئيةٍ فقط.

هذا التفكير هو ما يليق بالرئيس الروسيّ بوتين، ضابط المخابرات السوفييتية السابق الذي يحمل ثأراً قديماً ومتجدّداً مع الغرب ومع قيم الحرّيات وحقوق الإنسان والديمقراطية، فضلاً عن جنون عظمةٍ شخصيٍّ وقوميّ، واستهتارٍ بأعراف ومعايير المجتمع الدوليّ التي يراها غربيةً أيضاً. ومن هنا لن يمانع في ترؤس محورٍ للدول المارقة والأنظمة الديكتاتورية يحاول به استعادة الأمجاد الإمبراطورية السوفييتية، وما قبلها، ولكن دون أيديولوجية هذه المرّة.

إستراتيجياً لن ينجح هذا الخيار، طالما أنه خارج معطيات العصر ومضادٌّ لإرادة الشعوب، ولكن على المدى القريب، وفي الحالة السورية التي تشهد عجزاً دولياً، يجب عدم الاستهانة بتحالف المتغطرس الروسيّ مع المحور الطائفيّ الممتدّ من إيران وأذرعها العراقية إلى لبنان، مروراً بشبّيحة الأسد وبقايا قوّاته المنهكة.

وإذا كانت الصدمة الأولى للتدخل الروسيّ لم تحدث أثراً مهماً فإنما حصل ذلك بفضل مقاتلي الجيش الحرّ وبفعل الأسلحة والذخائر التي أتيحت لهم من أصدقاء الشعب السوريّ. وإذا أردنا لهذا الفصل من الكابوس الطويل أن يمضي دون تأثيرٍ سلبيٍّ على مسار الثورة فلا مناص من تكامل هذين العنصرين؛ قوّاتٌ منظّمةٌ ومتعاضدةٌ ومتأهبة، ودعمٌ كافٍ من أعداء حلف «شبّيحة» العالم الذين اتحدوا ضدّ هذه الثورة.

وربما يكون الحصول على الدعم في هذه المرحلة أسهل مما سبق، ما دام الصراع قد اندرج في محورين كبيرين، مما سيحمل خصوم روسيا الغربيين على إفشال مشروعها في سورية، وخصوم إيران في الإقليم على كسر طموحاتها. ولكن الجدير بالتقدير بالفعل هو موقف هؤلاء المقاتلين الشجعان، يعيشون على السلال الإغاثية المتقطّعة ويتمسّكون ببندقيتهم بينما يستطيعون الوصول إلى المهجر الأوربيّ المريح خلال أسبوع.

بالفعل... الله محيّي الجيش الحرّ!

4 البوكمال بين سايكس بيكو والبغدادي
5 الخوف من الموت
6 مهاجرات ومعلمات والمبايعة اللئيمة
7 على حواجز الجبهة الشامية، يهان أبناء دير الزور
10-12 بئر المزعل... بورتريه
14-15 حول سوريا في سبعة أيام
16 حرب روسيا المقدسة
19 البوتينيون... طائفة جديدة من أتباع الأسد

طائرات روسية في مطار حميميم – AP

بعد التدخّل الروسيّ... ثلاثة عوامل حاسمة

هيئة التحرير

بالتزامن مع تنفيذ الطائرات الروسية أولى مجازرها في ريف حماة مطلع الشهر الجاري، حدّد الرئيس الروسيّ فلاديمير بوتين أهداف وطبيعة تدخل بلاده في سوريا بثلاث نقاطٍ رئيسية؛ هي دعم بشار الأسد والجيش السوريّ في مواجهة ما سمّاه التنظيمات الإرهابية، واقتصار العمليات العسكرية الروسية على الجوّ، وأخيراً أنّ موسكو لن تغرق في الصراع السوريّ.

لكن، وبغضّ النظر عمّا أراد بوتين الإيحاء به من وضوح رؤيته السياسية للقضية السورية؛ تجدر الإشارة إلى حجم التركيز الذي أبداه على الجانب العسكريّ، ما يدفع إلى الحديث عن ثلاثة عوامل ستكون حاسمةً في تحديد مصير هذه الخطوة.

التورّط الدوليّ

للمرّة الأولى منذ بداية الثورة نقل تدخّل موسكو مسار الأحداث من مرحلة التصريحات والتجاذب السياسيّ بين معسكري الدول الداعمة للنظام والأخرى المعارضة لبقائه، إلى مرحلة تورّط دولة كبرى تسعى إلى قلب التوازن الميدانيّ القائم على الأرض، بغية فرض حلٍّ سياسيٍّ يبقي الأسد في السلطة. لكن، ومع ذلك، لم تطرأ أيّ تغيراتٍ على مواقف الدول المعنية بالشأن السوريّ، إذ وصف الرئيس الأمريكيّ باراك أوباما التدخل العسكريّ بأنه تجسيدٌ لفشل الإستراتيجية الروسية في سوريا، وقال إنه لن يكتب له النجاح، وكذلك رأى رئيس الوزراء البريطانيّ دافيد كاميرون. وعلى مستوىً آخر فإن الإعلان الروسيّ عن غرفة عملياتٍ مشتركةٍ مع كلٍّ من إيران والعراق قد يدفع إلى ردود أفعالٍ تتجاوز التصريحات، وخاصّةً بالنسبة إلى الدول الاقليمية، كالسعودية وقطر وتركيا، التي تخوض صراع مصالح مباشراً مع النفوذ الإيرانيّ المنضوي تحتَ مظلة التحالف الروسيّ مع النظام. إذ أشارت العديد من التقارير إلى أن روسيا ستعتمد، في خطّتها العسكرية التي تهدف إلى استرجاع مناطق كان النظام وحلفاؤه قد خسروها، على قوّاتٍ تتكوّن بالدرجة الأولى من عناصر حزب الله والحرس الثوريّ الإيرانيّ الذي أصبح وجوده صريحاً. ما من شأنه أن يدفع الدول المعارضة للـ«سياسة» الروسية والوجود الإيرانيّ إلى تقديم المزيد من الدعم العسكريّ لفصائل الثورة لإبقاء التوازن قائماً من ناحية، ولإفشال «المشروع» الروسيّ والإيرانيّ على المدى الإستراتيجيّ، من ناحيةٍ أخرى.

الخارطة العسكرية

لم تتأخر قوّات النظام، والميليشيات المتحالفة معها، عن الاستجابة المباشرة لعمليات القصف والتوجيه الروسية. إذ بدأت بشنّ هجوم على عدّة جبهاتٍ في أرياف حماة وحمص واللّاذقية وحلب. لكن النتائج الأولية لهذه العمليات كانت كارثية عليها؛ إذ أحصى ناشطون ما يزيد على 30 دبابة ومدرّعةً تمّ تدميرها على أيدي الجيش الحرّ في ريفي حماة واللاذقية خلال ثلاثة أيام فقط، فيما استطاع الثوار السيطرة على بلدة دورين الاستراتيجية في ريف اللاذقية، واستعادة سكيك وكفرنبودة في ريف مدينة حماة، التي أعلن جيش الفتح عن بدء معركة تحريرها. كما تمكن الثوّار من السيطرة على عدّة سرايا تابعةٍ للواء تسعين في ريف القنيطرة الشماليّ. وفي هذا الوقت شيّع الإيرانيون أربعة قادةٍ في الحرس الثوريّ، على رأسهم حسين همداني الذي قتل في ريف حلب. ومن ذلك لا تبدو المعادلة التي يسعى الروس إلى فرضها سهلة التنفيذ، رغم المبالغات الإعلامية التي يسوّقها النظام عن الحشود العسكرية، والقصف والدعم الروسيّ. إذ تتحوّل هذه الجبهات إلى مناطق استنزافٍ لميليشيات النظام كلما قُرّر فتحها.

من سيحارب داعش؟

كان شعار محاربة داعش والإرهاب عنواناً التدخل الروسيّ الذي يسعى إلى تسويق نظرية الاعتماد على النظام في هذه الحرب المزعومة. لكن هذه الحجة لم تقنع أحداً سوى مريدي الأسد، وخاصّةً بعد تركيز هجمات الطيران على المناطق المحرّرة وتجاهل مواقع التنظيم الذي يقدّم بهجماته على الجيش الحرّ في ريف حلب خدماتٍ جليلةً للنظام وحلفائه. لكن، بالمقابل، أثبتت الوقائع عجز التحالف الدوليّ الذي تقوده أميركا عن إحداث فارقٍ بعد عام من الضربات الجوّية ضدّ مواقع التنظيم، الذي قامت الفصائل الثورية بالتصدّي له وإلحاق الكثير من الهزائم به في عددٍ من المناطق، مقابل عدم وجود حلفاء لروسيا قادرين على، أو حتى راغبين في، محاربة التنظيم. وهذا ما عبّر عنه باراك أوباما في ردّه عن سؤال «من سيقضي على داعش؟»، حين قال: «لا يمكن القضاء على التنظيم دون التعاون بين المجتمع الدوليّ، وعلى رأسه الولايات المتحدة، والسكان المحليين في سوريا والعراق».

وهكذا يبدو التدخل الروسيّ خطوةً لملء الفراغ الذي أحدثه تهاوي سلطة الأسد الذي فقد المبادرة العسكرية لصالح الثورة، وها هو يتحوّل إلى شمّاعةٍ للمشاريع الدولية التي لن تستطيع إنقاذه بعد أن باتت تواجه مشاكلها، ولربما قتلاها، في قلب المحرقة.

مدينة البوكمال

بين سايكس وبيكو وإبراهيم العوّاد

علي خطاب

عاقب تنظيم الدولة الإسلامية، منذ أيام، أحد سائقي السيارات العمومية، لنقله عراقيين من مدينة البوكمال إلى مدينة دير الزور. كانت العقوبة ثلاثمائة جلدةٍ، وغرامةً قدرها خمسمائة دولارٍ عن كلّ شخص. واندرجت العقوبة في سياق تطبيق التنظيم لقانونه بمنع العراقيين من الانتقال إلى سوريا دون موافقة «والي ولاية الفرات»، التي تضمّ مدينة البوكمال وريفها إلى جانب مناطق عراقية، وتفصل بينها وبين «ولاية الخير» (معظم دير الزور) هضبة الصالحية.

أزال التنظيم -منذ إعلانه الخلافة- الحدود الترابية التي ترسم الحدود السياسية بين العراق وسوريا، في المناطق التي يسيطر عليها، للتعبير عن رفضه اتفاقية سايكس بيكو والحدود التي أوجدتها. وقد طالبت الموارد البشرية في التنظيم، منذ ما يقارب الشهرين، عناصره الذين يكنّون أنفسهم (أبو فلان السوريّ) بتغيير كناهم، رفضاً للوصف الذي يتطابق في وعي الناس مع الحدود المعروفة. بينما تشير أدبيات التنظيم ببلاد الشام إلى الأراضي التي تبدأ من غرب نهر الفرات، وهو ما عبّر عنه جنوده حين دخلوا إلى مدينة دير الزور حفاةً، وقبّلوا أرضها، لأنها جزءٌ من أرض الشام المباركة كما يعتقدون. لم يأخذ الكثير من أهالي المناطق السورية التي سيطر عليها التنظيم -بمن فيهم مقاتلوه- على محمل الجدّ شعاراته المرفوعة بتغيير خارطة العالم، لكنهم ينظرون إليه في العراق على نحوٍ مغاير، إذ إن معركته هناك معركةٌ وجودية؛ ولذلك يفرّق البعض بين «داعش في سوريا» و«الدولة الإسلامية في العراق».

وإذا كان معروفاً عن أهالي المنطقة الشرقية في سوريا قربهم من أهالي العراق في أمورٍ كثيرة، وتقديرهم لقياداته السابقة، وخاصّةً صدام حسين؛ فإن أهالي البوكمال كانوا معروفين في المنطقة الشرقية نفسها بأنهم سوريون بالهوية لكنهم يكادون يكونون عراقيين بالواقع، لقرابة الدم والنسب مع أهل العراق، ولأن (العانيين والروايين) من أهمّ المكوّنات الاجتماعية في المدينة، بالإضافة إلى ارتباطهم الاقتصاديّ الوثيق بالسكان على الجانب الآخر من الحدود. وقد ظهر التقارب في أكثر من مناسبة، كما في مطالبة البوكماليين الأمن السوريّ بفتح الحدود في حرب الخليج 1991.

خلال إزالة الحدود السورية العراقية - من إصدارات داعش

فرض الواقع السياسيّ نفسه مع الزمن، منذ التقسيمات الإدارية عام 1904، عندما أُلحقت البوكمال بدير الزور. فالحدود السياسية، وتعقيدات الزواج الخارجيّ، ومنع التنقل وإدخال وإخراج البضائع لفتراتٍ طويلة، وغيرها من الممارسات (التي كانت كثيراً ما تخرق، لكن خرقها كان مغامرةً ذات تبعاتٍ خطيرة)، وارتباط البوكماليين أكثر فأكثر بدوائر الدولة السورية ومؤسّساتها وعجلتها الاقتصادية، ومدارسها وجامعاتها؛ كلّ ذلك وغيره خلق في النهاية واقعاً اجتماعياً جديداً، يستطيع المراقب أن يلاحظه اليوم في تحفظ الأهالي تجاه العراقيين (أقاربهم السابقين). وربما أسّس لهذا التحفظ قبلاً إحساسٌ عامٌّ لدى كثيرٍ من السوريين بأن الشعب العراقيّ «خان صدّام حسين وخذله». ثم جاء نزوح العراقيين إلى سوريا ليظهرهم بصورةٍ واقعيةٍ مغايرةٍ للصورة الوردية المتعاطفة التي رسمتها لهم حربهم ضد إيران، وتهديد إسرائيل وامريكا، والحصار الطويل الذي فرض عليهم.

اليوم تعدّ البوكمال من أكثر الأسواق انتعاشاً بالبضائع التي يأتي العراقيون لشرائها؛ كما تبدو مركزاً خدمياً مفضلاً لهم؛ لكن البوكماليين يظهرون تبرّمهم من التمييز الكبير أمام القانون بينهم وبين العراقيين من أبناء «الولاية» نفسها. إذ يتمتع أهالي العراق بامتيازاتٍ واسعةٍ، أهمها حرص التنظيم على الحفاظ على مصالحهم، ومنحهم حصانةً رمزيةً -إن صحّ التعبير- وليّ عنق القوانين من أجل ذلك. وليست بعيدةً عن هذا التنقلاتُ التي طالت قادةً سوريين في التنظيم (أبرزها نقل صدام الرخيتة -الذي كانت له اليد الطولى في سيطرة التنظيم على مدينته البوكمال- إلى الشولة) لأن سلطتهم تعارضت مع مصالح عناصر، بل وحتى مدنيين، من العراق.

يقول مقرّبون من التنظيم إن قانون منع أبناء «ولاية الفرات» من السفر سببه الخوف من هروب قياداتٍ منهم إلى تركيا قد تعمل على تحريك انتفاضةٍ بوكمالية تفصل سوريا عن العراق، خاصّةً أنّ كثيراً من عناصر التنظيم البوكماليين كانوا سابقاً في جبهة النصرة. وإذا بدا هذا السبب غير واقعيٍّ، فإن واقعية قادة التنظيم، التي بدت في غير مكان، ومحاولتهم دمج البوكماليين بأهل العراق، ثم كلام منظريه عن مخططٍ أمريكيٍّ لتقسيم المنطقة؛ يدفع إلى الظن أنهم يريدون الاحتفاظ بالبوكمال إذا قيّضت لهم المحافظة على دولةٍ سنّيةٍ في العراق كأمرٍ واقع. أما اعتراضهم على سايكس بيكو فهو ليس اعتراضاً على المبدأ، بل على التفاصيل.

الخوف من الموت:
ما الذي تغيّر بعد دخول التنظيم؟

دير الزور - عدسة كرم

سمهر الخالد

منذ دخول تنظيم الدولة إلى مدينة دير الزور والخوف من الموت يزداد شيئاً فشيئاً. وهو ما يظهر في أحاديث الأهالي اليومية، بالإضافة إلى كلام الكثير من الفاعلين الاجتماعيين والمقاتلين ممّن ترك السلاح أو ممّن لا زال يحارب إلى جانب التنظيم.

نتيجة وقوع أغلب خطوط التماسّ بين النظام والفصائل المقاتلة في مدينة دير الزور، شكّل الخوف من القصف هاجساً يومياً لمن بقي من سكانها. وما جعل الخوف مركّباً أن مركز المدينة بقي مهدّداً باجتياح قوّات النظام، لذلك فإن غالبية من عايش مراحل المعارك في المدينة كان يفضّل الموت تحت القصف أو في اشتباك على أن يقع أسيراً أو يصاب إصابةً خطيرة. الأمر الذي كان يُعبَّر عنه كثيراً، حين يقف شبح الموت في اليوم القادم أو القذيفة الأخرى أو الخطوة التالية، ليتراجع عن كونه التحدّي الأكبر، وتصبح كيفية الموت هي العقبة التي تؤرّق سكان المناطق الواقعة تحت نيران جيش النظام المباشرة، والمهدّدة بالاجتياح في كلّ وقت.

أما اليوم فقد انقلب الوضع، ليرجع الموت مقدّماً على كيفيته، كما يبدو من كلام الكثيرين. وقد لمس هذا الشعور أغلبية من عمل في المجال العامّ، من ناشطين وإعلاميين وغيرهم. فيرى أحدهم، وهو ممرّضٌ، أن الموت الآن «مجاني... أحسّ أنو راح أموت ببلاش». رغم أنه لم يكن يحسب حساباً للموت في السابق، وقد واكب القتال منذ بدايته. أما عن السبب فيرى أحد العاملين السابقين في الإغاثة أن الطمأنينة التي كان يعيشها كان مصدرها ثقته بالجيش الحرّ، مما جعل القصف هو الخطر الوحيد وقتها، أما هؤلاء «فما تعرف إيمت ينسحبون، لأنو مو سائلين عنّا».

بعد تفكير يتكلم أحد العاملين في المجال الطبّي عن السبب فيقول: «قبل كنت جاهز للموت لأني كنت أدافع عن قضيتي، أما اليوم إذا متّ فراح أموت منشان قضية مو قضيتي». ويعبّر أحد الإعلاميين العاملين في الخفاء عن ذات الفكرة بلغة أخرى: «الدولة لا تعبّر عن الناس وأفكارهم وآمالهم، لكن عن طموح القائمين عليها. لذلك فالناس لاشعوريا اتخذت موقف المتفرّج مما يجري، مما يفسّر دعاءهم «اللهم اضرب الظالمين بالظالمين». يضاف إليه الموقف السلبيّ لهم وهم عاجزون أمام القصف لا يستطيعون شيئاً تجاهه». بينما يرى إعلاميٌّ آخر متحمّسٌ للتنظيم أن السبب هو «أن القصف الآن فتاك»، مشيراً إلى دخول البراميل المتفجّرة كسلاح يلقيه الطيران كثيراً في الآونة الأخيرة، ما دفع بعض العائلات إلى النزوح عن المدينة.

أما المقاتلون الذين سألناهم عن الموضوع فأغلبيتهم تؤكّد أن الخوف من الموت قد تضاعف، رغم أن بعضهم تعرّض لأكثر من إصابة قبل دخول التنظيم، لكنه لا يعرف سبباً لخوفه الكبير اليوم. بينما يربطه مقاتلون آخرون بالخوف من النتائج، فيقول أحدهم: «اللي يروح يروح من كيسو. والناس صارت تخاف بعد ما شافت حال الجرحى». في حين يرى البعض أن منسوب الخوف لم يتغيّر.

أغلبية الأهالي تشاطر الفاعلين ازدياد خوفهم. وهم يعبّرون عنه أحياناً بقلة الإيمان أو الإخلاص أو بالركون إلى الحياة، بينما لا يجد بعضهم تفسيراً له. ويربطه قسمٌ منهم بالبراميل المتفجّرة؛ يقول أحد الشبان: «أشعر أني كنت بغيبوبة والبراميل صحّتني»، رغم أنه لا يفكر في مغادرة المدينة.

ولا نغفل بالطبع عن خوفٍ من نوع آخر يلقي بظلاله على سكان المدينة خاصّةً، وهو الخوف من الاعتقالات الكثيرة التي تمارس بحقّهم لأبسط الأسباب، كنوع اللباس وطول الشعر، وقانون التنظيم المماثل لقانون الطوارئ، والذي يشبه منطقةً مظلمةً قد يجد الشخص نفسه فيها دون علمه.

رغم أن البراميل شكّلت عاملاً أساسياً في ازدياد الخوف، إلا أن معايشة سكّان المدينة لحملاتٍ عسكريةٍ شرسةٍ نفذها النظام في أوقاتٍ سابقةٍ، وانتظارهم الموت المحتّم في أكثر من حملة، وتعرّض الكثيرين منهم للإصابة ورفضهم ترك المدينة حتى الآن؛ كلّ ذلك يبقي السؤال عن ازدياد الخوف من الموت مفتوحاً.

مهاجراتٌ ومعلّماتٌ والمُبايعة اللئيمة

مي محمود

في غرفةٍ واسعةٍ من بيت المصرية أم عمر اجتمعنا، أنا وخمس معلّماتٍ، مع ثلاث مهاجراتٍ من داعش، للتباحث في افتتاح مدرسة.

أوّل الاجتماع، وفي الدقائق القليلة التي انتحت خلالها المهاجرات ببعضهنّ في غرفةٍ ثانية، شعرنا بقلق من مؤامرةٍ و«نيّة شر». وبين الجدّ والهزل جاءت همساتنا: «لازم ننهزم، يريدون يذبحونا»؛ «بي كاميرات بالحايط»؛ «لا تشربون شي، ممكن يحطّون سمّ بالشراب».

لم تبذل أم عمر جهداً في العناية بالمنزل المخصّص لعائلتها من المدينة السكنية لحقل العمر، إذ تدلت فوق الشبابيك ستارةٌ شبه ممزقة، وخلا الحائط سوى من علم باهتٍ لداعش، إلى جانب رفٍّ يحمل رزماً لمنشورات التنظيم الدعوية. وعلى الأرض لم تكن «الإسفنجات»، التي جلسنا عليها، متناسقةً في أحجامها وألوان أغطيتها. بينما دلّت الوسائد الضخمة على مصدرها كما همست إحدانا: «غنايم الشعيطات»، إشارةً إلى الأثاث المسروق من آلاف المنازل في مدينة أبو حمام معقل عشيرة الشعيطات، والتي احتلتها داعش قبل أكثر من عام واعتبرت كلّ ما فيها غنائم للتنظيم. رغم ذلك بدت أم عمر زاهدةً إلى حدٍّ كبير بغنائم الأثاث، مكتفيةً بالقليل منه.

لم نعرف سبب خلوة نساء داعش وعلى ماذا اتفقن، لكن الاجتماع بدأ على كلّ حال فور انضمام «اللئيمة» -كما سمّينا المرأة الرابعة من طرف داعش- التي جاءت تحمل بندقيةً على كتفها، واعتذرت، إلى المهاجرات فقط، عن تأخرها عن الموعد.

قالت أم عمر إن تعليم الأولاد القراءة والكتابة والحساب أمرٌ هامٌّ جداً، لكنه يجب أن يسير بالتوازي مع عمل آخر هو «غرس حبّ دولة الخلافة، لأنها الحاجة الأهمّ من كلّ حاجة». وقالت إن كتب المنهاج الجديد «ذات الطباعة الفاخرة» ستكون جاهزةً قبل بدء العام الدراسيّ، وإن علينا أن نستعد. بدت المصرية خبيرةً بعض الشيء بشؤون التعليم، اذ أبدت ملاحظاتٍ هامةً عن البرنامج وتوزيع الحصص، بخلاف رفيقتيها اللتين لم تقولا شيئاً مفيداً رغم زعمهنّ بأنهن معلّماتٌ سابقات. أبدت أم عمر لطفاً ملحوظاً نحونا، قد يكون سببه انصياعنا الكامل لتوجيهاتها، أو ربما كانت لطيفةً في الأصل، رغم تعميماتها الحادّة بخصوص ماضينا المهنيّ كمعلماتٍ لـ«مناهج منحرفة»، تجعل منا «مفسدات».

كان كلّ شيءٍ على ما يرام لولا التدخل المفاجئ «للئيمة» التي سألت بصورةٍ مباغتةٍ في لحظة صمتٍ من الجميع: «من منكنّ أمل؟ أمل اللي تقابل الطلاب بالبيجاما». تلاحقت إجاباتنا سريعةً بأن أمل ليست بيننا، بل «ومن هي أمل؟». «معلمة تعطي دروس خصوصي للأولاد بالبيت وتقابلهم بلباس منكر، بيجامات ونص كمّ. والله أعلم تعمل إيش كمان». عرفنا أن «اللئيمة» مخطئةٌ في اسم واحدةٍ منّا ارتدت بالفعل، مرّةً أو مرتين، بيجاما أثناء درس لطفلين مهاجرين دون العاشرة، قبل أن تتلقى تنبيهاً من أمهما بضرورة «الاحتشام». بالإصرار على إنكار وجود هكذا معلّمةٍ بيننا نجحنا في صدّ أوّل عدوانٍ من هذه المرأة التي أوحت لهجتها التونسية أنها مهاجرة، قبل أن نكتشف أنها من ريف إدلب، تزوّجت مهاجراً تونسياً وانتقلت معه بعد طرد التنظيم من هناك، وهي تقلد زوجها في لهجتها المستعارة و غير الموفقة.

لم ينفع إطراء أم عمر بأننا «بنات حلال» وأنها متفائلةٌ بنا، إذ لم تكفّ «اللئيمة» عن مضايقتنا، ووجدت ضالتها أخيراً في وجه إحدانا: «إيش عاملة بحواجبك؟ حرام! وإلا ما يهمكش حلال وحرام؟! وباين ما يهمكش!». لم تكن رفيقتنا المتهمة بإهمال الحلال والحرام تتوقع أن تكون بضع شعراتٍ أزالتهنّ من حاجبيها سبباً لورطةٍ مثل هذه. ولم تجد، أمام توبيخ «اللئيمة» لها، إلا البكاء، مما أثر بأم عمر التي أخذت تنصحنا، برفقٍ غير معتادٍ من نساء داعش، بترك أصغر المخالفات.

مرّ وقت الاجتماع ببطء. ولم نخرج بفهم واضح لخطّة عمل المدرسة المفترضة سوى مَا نعرفه من فصل الذكور عن الإناث، والمنهاج الجديد، وضرورة التقيّد الكامل باللباس الشرعيّ.

على حواجز الجبهة الشامية بحلب:

إهاناتٌ واعتقالاتٌ لأبناء دير الزور

معاذ طلب

"وين الديرية؟... الديرية ينزلو".
هي العبارة الأولى التي يسمعها ركّاب السيارات القادمة من مناطق سيطرة داعش في طريقهم إلى تركيا على أوّل حاجزٍ للجيش الحرّ، وبالتحديد حاجز "الجبهة الشامية".

يحمل السؤال عن "الديرية" دون غيرهم اتهاماً مسبقاً بعلاقةٍ تربط أبناء المحافظة بتنظيم داعش. وهم الهاربون، بمعظمهم، من الحياة تحت سلطته ومن العدوان المستمرّ لطائرات الأسد على مدنهم وقراهم. خلال الرحلة التي تمتدّ لما يقرب العشر ساعات، يتعرّض المسافرون من دير الزور لنوعين متناقضين من التهم؛ فهم "مرتدّون" تقريباً، وهاربون من "دولة الإسلام" إلى ديار الكفر، بحسب حواجز داعش، وهم "دواعش" تقريباً بحسب حواجز أعداء داعش في الجبهة الشامية، وهي الصيغة الاسمية لعددٍ من الكتائب والفصائل متفاوتة الأهمية ودرجة الانضباط.

ويشكّل السؤال عن أبناء دير الزور بدايةً لمضايقاتٍ لفظيةٍ من عناصر الحاجز، قد تتطوّر إلى إهاناتٍ لمن يرفض طريقة التعامل هذه، لا يسلم منها حتى الرجال الأكبر سناً، أو إلى توقيفٍ وسجنٍ وتحقيقٍ قد يتخللها ضربٌ وتعذيبٌ شديدٌ، وربما إخفاءٌ قسريٌّ، كما حدث مع الشاب أنس العلوان، ابن مدينة دير الزور الذي أراد اللجوء إلى تركيا آملاً أن يعثر على عملٍ يساعد به عائلته النازحة في مدينة البوكمال. فقبل عدّة أشهر سافر أنس في حافلةٍ صغيرةٍ (سرفيس) مجتازاً مناطق داعش، واختفت آثاره قبل وصوله إلى معبر باب السلامة الحدوديّ، لتبدأ بعدها معاناة أهله في البحث عنه لدى القوى المسيطرة دون نتيجة، إذ تنصّل الجميع من أيّ علاقةٍ بحادثة الاختفاء، بل تبادل بعضهم التهمة تجاه الآخر. ولم تجد عائلة أنس سوى مواصلة البحث عنه، متتبعةً الأخبار المتناقضة التي تصل إليها بين حينٍ وآخر، كما يقول شقيقه: "مرّة يجينا خبر أنو موجود بالمؤسّسة الأمنية التابعة للجبهة الشامية، ومرّة يقولولنا بالقاطرجي عند أحرار الشام، ومرّة يقولولنا موجود بمشفى العيون يلي بيه لجنة قضائية مشتركة من النصرة وأحرار الشام والجبهة الإسلامية. حسبنا الله وهو نعم الوكيل". تبدو "حسبنا الله ونعم الوكيل" غريبةً بعض الشيء حين تطلق في وجه غير قوّات الأسد وداعش، لكن القصص التي ينقلها المسافرون، وخاصّةً أبناء دير الزور منهم، تجعلها مناسبةً إلى حدٍّ كبير، حين يمكن لبضع فتيةٍ مسلحين أن يفعلوا ما يحلو لهم دون أيّ رادع، وتحت غطاء الاشتباه بالعلاقة مع داعش.

يدافع بعض المقرّبين من القوى المسيطرة في ريف حلب المحرّر، أمام حوادث الإساءة المتكرّرة بحقّ أبناء دير الزور، بأن من يوجّه التهم هم الديريون المنتمون إلى هذه القوى أنفسهم، ملقين باللائمة على هؤلاء، دون أن ينتقدوا فرزهم إلى الحواجز كـ"خبراء أمنيين" يحدّدون "الدواعش" وأقرباءهم على هواهم وكيفما اتفق.

أحد ضحايا الحواجز في ريف حلب

إذ يمكن لعبارةٍ يقولها المسافر أن تجلب له المتاعب، كما حدث مع شابٍّ اتُّهم بأن شقيقه "داعشيّ" فجاء ردّه مستنكراً: "وأنا شكاري؟! إن شا الله أخوي يكون البغدادي ذاته". ليتعرّض إثر ذلك للضرب وللإهانة، ثم للسجن وللتعذيب لمدّة يومين، قبل أن يخرج بتدخلٍ من بعض عقلاء الكتيبة أو الفصيل المنتمي إلى الجبهة الشامية.

وحتى الكهول والشيوخ قد يقعون في دائرة الاتهام بالعلاقة مع داعش، فقد يكونون ممن حرّضوا لصالحها أو ساندوها أو فتحوا بيوتهم للدواعش، أو غير ذلك من قائمة التهم السهلة التي يخترعها عناصر الحاجز تمهيداً لاعتقال المتهمين أو ابتزازهم لدفع مبالغ كرشاوى لقاء "تيسير أمورهم" وتركهم يمضون بخير.

وآخر ما عرف من هذه الحوادث كان ما تعرّض له الناشط الإعلاميّ محمد حسان، الذي اعتقل في مدينة أعزاز بريف حلب الشماليّ بتهمتين متناقضتين هما العلاقة مع داعش والعلاقة مع الائتلاف. وتعرّض للضرب والإهانة، دون أن يعرف المجموعة التي اعتقلته وسلّمته إلى جهةٍ أخرى، لا يعرفها أيضاً، قبل أن يطلق سراحه.

أبو شدّاد ونسوانه الثلاث

محمد شامان

بخلاف أمير الحسبة الجديد أبو حفص الجزراويّ -سعوديّ الجنسية- المتكتّم على حياته الشخصية، كان أبو شداد شفافاً بعض الشيء. إذ يعرف معظم سكان المدينة عدد زوجاته ومن هنّ؛ فأم شدّاد هي الزوجة الكبرى التي جاءت معه من الريف، فيما تنتمي الزوجتان الثانية والثالثة لعائلتين من المدينة. عملت النسوة الثلاث إلى جانب الزوج في جهاز الحسبة، حتى أنه نادراً ما شوهد في «أوقات العمل» وحده، ونادراً أيضاً ما تحدّث الناس في دير الزور عن قصة من قصصه الكثيرة دون نسائه. ودوماً كان المشهد متكرّراً، أبو شدّاد وزوجاته في دورية حسبة واحدة، هو الزوج والسائق وقائد الدورية وأمير الجهاز، إلى جانبه في المقعد الأماميّ أم شدّاد، فيما تجلس الزوجتان الثانية والثالثة في المقعد الخلفيّ. تتحرّك السيارة ببطء وتنشغل ستة عيون بالتفتيش في كلّ اتجاه، تمسح كلّ شباك وباب وزقاق، وتفحص كل امرأة من الحذاء إلى الرأس. وأمام أيّ خلل في قانون الزيّ الخاصّ بداعش، مثل عباءة غير فضفاضة، أو حذاء ذي كعب، أو جوارب ملوّنة، أو غير ذلك، تسرع السيارة -ولو كانت على مسافة أمتار من الضحايا- ثم تتوقف بفرملة مثيرة، وتترجّل نساء أبو شداد للقبض على صيدهنّ. وفي معظم المرّات تذهب محاولات الإفلات أو المقاومة سدى، إذ يعجز المارّة عن

حماية الضحية، وخاصّةً مع صيحات أبو شداد السريعة عبر قبضة اللاسلكي بطلب مؤازرة. تتراوح العقوبة بين سجن المرأة أو جلدها -على يد أم شداد غالباً- أو جلب ولي أمرها ليكون بديلاً عن المخالفة في تلقي العقاب. وقد يكون العقاب انفعالياً وفورياً، كما حدث في حالة شابة شوهدت على باب بيتها وهي تحمل الجوّال. حاولت الدورية اعتقال الفتاة فقاومت وشتمت أبو شداد الذي لحقها إلى داخل البيت، لينتقل الشجار هناك إلى شقيقها الذي سُجن وعُذّب بشدّة بدلاً عن أخته. المفارقة أنه أُبلغ، وهو تحت التعذيب، بإسقاط أبو شدّاد حقه الشخصيّ، وأن ما يتعرّض له هو الحقّ العام!

عزل أبو شداد بعد أن تآمرت عليه مجموعةٌ من عناصر داعش تعرف بـ«مافيا الدخان»، لأنها تسهّل تهريبه، كما يقول بعض المطّلعين على الصراعات الداخلية. إذ اتهم بضرب امرأة حامل مما أدّى إلى إجهاضها. ويقول آخرون إن الشكاوى الكثيرة، والمدعومة من «رؤوس كبيرة» في داعش، ضدّ أبو شداد قد أطاحت به، ليُنقل إلى الجبهات كمقاتل عاديٍّ، وتُحرم المدينة من مشهد زوجاته الثلاث المسلحات دوماً بالبنادق أثناء ترجلهنّ من السيارة أو انطلاقهنّ برفقته لاصطياد فريسة، أو وقوفهنّ على حاجز لتفتيش العابرات وإذلالهن.

مدرّسٌ سابقٌ من دير الزور

بسيطرة داعش على دير الزور، صيف العام الفائت، وجد (ع. س) فرصته للانتقام من الذين لم يقدّروه حقّ قدره، كما يعتقد، خلال سنوات الثورة و«الفوضى» بين سلطتي النظام والتنظيم. وهي المرحلة التي تساوى فيها، وهو «الشخص المتميّز» في المدينة، مع غيره من الصاعدين الجدد، دون اعتبار لمكانة كان قد أحرزها من قبل، كمدرّس وناشط اجتماعيٍّ محليٍّ معروف. فلم تلتفت إليه الهيئات والبنى الناشئة (حاول جاهداً أن يعمل في المكتب التربويّ، دون أن يخفي تكفيره للائتلاف وللحكومة المؤقتة التي يتبع لها هذا المكتب)، ورُفض، دون أن يأخذ رافضوه في الاعتبار تاريخه المهنيّ الطويل. ثم حاول جاهداً أن يكون شرعياً في صفوف جبهة النصرة، ورُفض أيضاً دون أن يأخذ رافضوه كذلك تاريخه كمتدين سلفيٍّ في الاعتبار. ولولا الطيبون في حركة أحرار الشام، الذين قبلوه كشرعيٍّ، لمرّت سنوات الثورة على (ع. س) دون أن يحظى بأيّ شيء. إلى أن جاءت داعش فانقلب الرجل على الجميع وبدأ الانتقام من الجميع، وأوّلهم زملاء المهنة في التعليم. فسارع الى المزاودة في التكفير على الدواعش أنفسهم، وعدّ المنهاج التعليميّ الذي درّسه لطلابه لأكثر من ٢٥ عاماً «زُبالة»، فضلاً عن انحراف هذا المنهاج طبعاً حسب ما قرّرت داعش وقت احتلالها للدير. ووعد سادته الجدد بأن يؤلّف منهاجاً جديداً في اللغة العربية تحت إشراف ديوان التعليم، ولكن هذا الديوان تجاهله هو الآخر. بل قاده حظه العاثر مع الجميع إلى السجن بتهمة «شرعيّ سابق في أحرار الشام»، قبل أن يطلق سراحه ليواصل تأييده اللفظيّ الشديد لداعش. وحتماً سيواصل عادته القديمة بتفضيل الطلاب الأغنياء على الفقراء.

منظمة العفو الدولية:
جرائم حرب ارتكبتها قوّات الحماية الكردية

هدم منازل وقرى كاملة، وعمليات تهجير واسعةٌ طالت العرب والتركمان وأحياناً الأكراد

سكان يقفون على سطح أحد المنازل المدمرة في بلدة الحسينية - أمنيستي

جان كرد

في 13/ 10/ 2015 ندّدت منظمة العفو الدولية (آمنستي) في تقريرٍ لها بتعرّض مدنيين لانتهاكات قوّات الأمن التابعة للإدارة الذاتية الكردية في المناطق التي تقع تحت سيطرتها في شمال سوريا. ويشير التقرير إلى أنّ المدنيين تعرّضوا للتهجير القسريّ وصُودرت ممتلكاتهم وهُدمت منازلهم.

وقد زار مندوبو المنظمة مناطق تحت سيطرة الإدارة الذاتية، وأجروا 37 مقابلةً مع الضحايا الذين تعرّضوا للانتهاكات. كما اعتمد أيضاً على مقابلاتٍ مع 11 شخصاً في إقليم كردستان العراق، بينهم أعضاء في الأحزاب السياسية الكردية في سوريا ممّن لا يمثلهم أحدٌ في الإدارة الذاتية، و25 مقابلةً أجريت في جنوب تركيا مع لاجئين من مناطق الإدارة الذاتية.

وكانت المنظمة قد أجرت استقصاءً في تموز وآب 2015 للوقوف على تفاصيل تهجير سكّان 10 قرى وبلداتٍ خاضعةٍ لسيطرة الإدارة الذاتية الكردية، وهي بلدة سلوك والقرى المحيطة بها من قبيل الغبينن ورنين وحمام التركمان والمغات وملا برهو وأصيلم، وقرية عبدي كوي في ريف تل أبيض الغربيّ، وتل فويدة في ريف تل تمر، والحسينية في ريف تل حميس.

ويؤكّد التقرير على وجود حالات تعمّد لهدم المنازل، طالت في بعض الأحيان قرىً بأكملها، وتهجير المدنيين من سكانها. ويعتمد التقرير على شهاداتٍ من الذين هُجّروا، ومنهم شهادةٌ لسيدةٍ من قرية رنين أكّدت أنّه في شهر تموز 2015 جاءهم أربعة أو خمسة من عناصر وحدات الحماية الشعبية وطلبوا منهم إخلاء منازلهم بحجة تحويل القرية إلى منطقةٍ عسكرية، وعندما أخبرتهم بأن ليس لهم مكانٌ يذهبون إليه ردّوا: «إنّها مشكلتكم».

وبعد ذلك كانوا يأتون بشكلٍ يوميٍّ لمدّة أسبوع، ممّا اضطرّ الأهالي إلى المغادرة أخيراً.

وفي زيارة مندوبي المنظمة لقرية الحسينية في ريف تل حميس، في أوائل آب 2015، يؤكّد التقرير أنهم وجدوا أن 90 منزلاً في القرية قد دُمّر، وهو العدد الكليّ تقريباً لمنازلها. واستند التقرير عن التهجير والتدمير اللذين تعرّضت لهما هذه القرية على شهاداتٍ من الأهالي، منها شهادةٌ لامرأةٍ أكّدت أنّ وحدات الحماية الشعبية عند دخولهم القرية أخبروا الأهالي بأنّهم جاؤوا لتحريرهم وأنهم لن يؤذونهم، وكلّ ما يريدونه هو الحصول على أسماء المطلوبين فقط. لكنّهم سحبوا السكان من منازلهم بعد ذلك، دون أن يستطيعوا أن يأخذوا معهم حتى ملابسهم. وجاءت القوّات بجرّافاتٍ، وبدأت بهدم المنازل.

ويشير التقرير إلى أنّ غالبية الذين تعرّضوا للانتهاكات هم من العرب والتركمان الذين يسكنون في مناطق خاضعةٍ لسيطرة الإدارة الذاتية الكردية، إلا أنّ هناك حالاتٍ شهدت منع قوات الحماية والأسايش سكّاناً أكراد يسكنون في بلدة سلوك من العودة إلى منازلهم. كما يؤكّد التقرير أنّ وحدات الحماية قامت بتهجير عددٍ قليلٍ من سكان قرية عفدي كوي التابعةً للريف الغربيّ لمدينة تل أبيض، وهم من المكوّن الكرديّ.

كما ذُكر في التقرير أنّ باحثي المنظمة لاحظوا أنّ بعض السكّان من المكوّنين العربيّ والتركمانيّ قد تُركوا ولم يتعرّضوا لأيّ إساءةٍ، خاصّةً في منطقة رأس العين التابعة للإدارة الذاتية.

ويوضح التقرير أنّ منظمة العفو الدولية زوّدت مسؤولي الإدارة الذاتية بملخّص عن نتائجها الأولية لكنّها لم تتلقَّ أي ردٍّ منهم حتى كتابة التقرير، وهذا ما نفته قيادات الإدارة الذاتية، ومنهم السيد ريدور خليل الناطق الرسميّ باسم الوحدات الشعبية. ومن جهة ثانية يُذكر في التقرير لقاء المنظمة مع السيد جوان إبراهيم، القائد العام لقوّات الأسايش في روج آفا، وفيه إقراره بحدوث بعض حالات تهجير العائلات من مناطق تحت سيطرة الإدارة الذاتية، ووصفه لها بأنّها حوادث معزولة وعددها محدود.

ويذكر التقرير أنّ هناك حالاتٍ من التهجير القسريّ جاءت انتقاماً من الناس جرّاء تعاطفهم المفترض مع عناصر من تنظيم الدولة الإسلامية (داعش). ويوثّق حالاتٍ تثبت عدم صحة ادعاءات الإدارة الذاتية بأنّ عمليات التهجير لم تكن تعسفيةً بل لضروراتٍ عسكريةٍ لا يمكن تفاديها ولاعتباراتٍ أمنيّة. وترى المنظمة أنّ حالات التهجير القسريّ هذه تعدّ جرائم حرب، وتدعو سلطات الإدارة الذاتية إلى التوقّف عن هذه الممارسات وإلى السماح للنازحين بالعودة إلى منازلهم، كما تهيب بالدول المنضوية في التحالف الدوليّ لقتال تنظيم الدولة إلى إدانة مثل هذه الممارسات.

من سيرة نفط دير الزور بعد الثورة
الحلقة الأخيرة
بئر المزعل (بورتريه)

(مادةٌ مأخوذةٌ من دراسةٍ عن النفط في المحافظة، منذ خروجه ومنشآته عن سيطرة النظام وحتى الآن. أعدّها فريقٌ من الباحثين. وصدرت مؤخراً عن «عين المدينة»)

رويترز

لم تُظهر عائلة المزعل، المقيمة في قرية الحريجي، 60 كم شمال شرق مدينة دير الزور، اهتماماً يذكر ببئر نفطٍ يقع ضمن الأرض المملوكة لها، في صيف عام 2012. لكن تنازع أطرافٍ أخرى على هذا البئر أيقظ شهوة التملك لديها خريف ذلك العام.

بدأت الحكاية بعبث ستة شبانٍ بالبئر بهدف بيع النفط المتسرّب من صماماته، مما أثار انتباه جبهة النصرة التي طردتهم وسارعت إلى الاستيلاء عليه. الأمر الذي أزعج بعض أقرباء المزعل في القرى القريبة، رغم تمتع معظمهم بـ«آباره الخاصّة». فاندفع سليطح، من قرية النملية، مطالباً النصرة بحصّةٍ من الواردات لكنها رفضت، فأحرق البئر نكايةً بالجبهة التي ردّت بهجوم على النملية أسفر عن مقتل أحد عناصرها، لتنسحب بعد ذلك بتأثير موقفٍ حكيم من أبو مصعب، عمّ القتيل وأحد قادة النصرة البارزين، الذي عدّ المقتول «ابناً لجبهة النصرة. وهي التي ستنتقم له في الوقت الذي تراه مناسباً». في موقفه هذا، حرص أبو مصعب على

تماسك جبهة النصرة، نظراً لانتماء كثير من مقاتليها إلى عشيرة البوكامل -في مدينة الشحيل على وجه الخصوص- التي ينتمي إليها كذلك كلٌّ من القاتل والمقتول، فآثر تهدئة النزاع درءاً للفتنة.

كانت النيران ما تزال مشتعلةً في البئر حين قرّرت عائلة المزعل أن تأخذ زمام المبادرة. فخاضت أولاً مفاوضاتها الخاصّة مع سماسرة شركة الفرات للنفط، وتوصّلت معهم إلى اتفاق يقضي بأن تدفع العائلة مبلغ 18 مليون ليرةٍ مقابل أن ترسل الشركة فريقاً فنياً لإخماد الحريق. لتبدأ العائلة بعد ذلك رحلتها مع البئر الذي اشتهر باسمها، كحال معظم آبار نفط دير الزور.

منذ ذلك الوقت، استقرّ إنتاج البئر على معدّل 1800 – 2000 برميل يومياً. واعتمد توزيع العائدات على الأسر المنتمية إلى العائلة على عدد أفراد كلّ أسرةٍ من الذكور والإناث. وبلغ متوسّط نصيب الفرد 4 آلاف ليرةٍ أسبوعياً (45 دولاراً وقتها). وهو مبلغٌ كبيرٌ في الحريجي التي صُنّفت، في دراسةٍ حكوميةٍ سابقةٍ، ضمن أفقر 13 قريةً في المحافظة[1]. ورغم الحاجة رفضت بعض الأسر استلام أيّة أموالٍ من عائدات البئر، بتأثير الرأي الدينيّ الذي يحرّم الاستفادة الخاصّة من النفط. وفي موقفٍ مشابهٍ، رفض أبو خطّاب المزعل[2]، القائد العسكريّ لكتيبة شيخ الإسلام، ثم كتائب المرابطين، التي ينتمي إليها معظم أبناء العائلة المنخرطين في العمل المسلح، تسلّم أيّ مبلغٍ من واردات البئر، رغم حاجة الكتائب الماسّة إلى الذخيرة والسلاح في معاركها مع قوّات الأسد على جبهتي حي العمال والرصافة في مدينة دير الزور.

العائلة تسلّم بئرها

مع بداية عام 2013، وبتأثيرٍ من شبّان المزعل المنتمين إلى كتائب المرابطين/ لواء الإسلام[3]، وبعد فتوى أصدرها المكتب الشرعيّ للواء -من غوطة دمشق- بجواز الاستفادة المشروطة من أموال النفط، بعد أن كانوا يتورّعون عن ذلك؛ واستجابةً للدعوات الملحّة التي أطلقتها شخصياتٌ دينيةٌ وعسكريةٌ داخل عشيرة البوكامل، كان أبرزها أبو معاذ حسين الهجر، الناشط السلفيّ والعضو السابق في الهيئة الشرعية العليا ثم الشرعية المركزية لاحقاً، وقائد تجمع كتائب الحق في الوقت ذاته، الذي حضّ أبناء عمومته المزعل على أن «يشكّلوا قدوة حسنة، ويكونوا أوّل من يسلم بئره للمنفعة العامة»؛ تخلت العائلة عن البئر شرط أن تتخلى العائلات والمجموعات العشائرية الأخرى عن آبارها خلال عشرة أيام.

أدارت لجنةٌ خاصّةٌ البئر بعد تسلّمه من المزعل. وقسّمت وارداته على التشكيلات العسكرية الرئيسية لعشيرة البوكامل، والمتمثلة في كلٍّ من جبهة النصرة، التي أخذت 8 حصصٍ، وكتائب المرابطين/ لواء الإسلام، 6 حصص، ولواء مؤتة ولواء الإخلاص وتجمع كتائب الحق 4 حصص لكلٍّ منها، ولواء جعفر الطيار حصّتين. كان عدد أفراد التشكيل المرابطين على جبهات القتال هو المعيار المعتمد لهذا التوزيع، الذي كان ظالماً بعض الشيء للواء جعفر الطيار، ولكن بسبب تشكيلته الواسعة التي تضمّ كتائب كثيرةً من خارج عشيرة البوكامل، كما أن بعضها كان مستولياً بدوره على آبار نفطٍ.

العائلة تستردّ البئر

نفد صبر المزعل بعد انقضاء مهلة العشرة أيام، ثم عشرةٍ أخرى، ثم شهرين دون أن يتحقق شرطهم بأن تسلّم العائلات الأخرى آبارها، بما فيها العائلات التي ينتمي إليها أغلب أعضاء تشكيلات الائتلاف المستفيد من البئر، مما دفعها إلى إعادة الاستيلاء عليه وتشغيله لصالحها من جديد.

سارت أحوال البئر على ما يرام خلال آذار ونيسان وجزءٍ من أيار 2013 تحت سيطرة العائلة، لولا المنغّصات التي شكلتها مطالبة عائلتي الدهش والزعال، الشقيقتين للمزعل[4]، بحصّةٍ لكلٍّ منهما. الأمر الذي رفضه المزعل، وخاضوا في سبيل ذلك سلسلةً من جلسات التحكيم العشائرية نجحوا خلالها في تثبيت «حقوقهم الحصرية» في واردات البئر، لأنه يقع فيما يمتلكون من الأرض. كانت كتائب المرابطون، خلال ذلك الوقت، تخوض معارك عنيفةً على جبهات القتال مع قوّات الأسد، وكانت في حاجةٍ ماسّةٍ إلى تمويل هذا القتال، فعرض قائدها العسكريّ أبو خطاب، ومن معه من أبناء المزعل، أن يستأجر البئر بمبلغ 4 ملايين ليرةٍ يومياً، تدفعها الكتائب للعائلة التي وافقت على ذلك. ويفصّل الطبيب علي المزعل، وهو ناشطٌ ثوريٌّ بارزٌ عمل في جوانب عدّةٍ صحّيةٍ وإغاثيةٍ وإدارية، طريقة توزيع الكتائب للواردات خلال مدّة الـ20 يوماً التي استأجرت خلالها البئر. إذ بلغت الواردات الصافية 22 مليون ليرةٍ، أعطيت 6 ملايين منها لكتائب فقيرةٍ من الجيش الحرّ، فيما أنفق الباقي على العمليات القتالية الخاصّة بالمرابطين، من شراء سلاحٍ وذخيرةٍ ودفع رواتب للمقاتلين[5] وغير ذلك من النفقات التي كان بينها مبالغ دفعت سراً لبعض الرجال المشاكسين من العائلة استرضاءً لهم مقابل أن يكفوا عن إثارة المتاعب[6]. ويؤكّد د. علي المزعل على الأثر الواضح والفعال لهذه الواردات في تحسين القدرات القتالية في معارك عدّةٍ خاضتها المرابطون ضد قوات الأسد. ولولا التطوّر الخطير، المتمثل في تصاعد صراع (المزعل-الدهش-الزعال)، لشكّلت تجربة استئجار المرابطون البئر ظاهرةً لافتةً، وخاصّةً مع المستوى العالي من الشفافية والنزاهة الذي أبداه ماليوهم في بيان مصير كل ليرةٍ أين أنفقت وأمام الجميع.

---

1 – دراسةٌ أعدتها مديرية التخطيط في دير الزور عام 2009، شملت 128 قريةً في المحافظة.

2 – أسامة رمضان المزعل: كان صيدلانياً قبل الثورة، وترك مهنته بعد اندلاعها لينخرط في النشاط السلميّ ثم المسلح ويكون من أبرز القادة العسكريين في فصائل الجيش الحرّ في المحافظة. شكل سلوكه الواعي والمخلص نموذجاً ملهماً لأبناء عائلته ولكثيرٍ من مقاتلي الحرّ، قبل أن يلقى حتفه خلال المعارك مع تنظيم الدولة الإسلامية في نيسان 2014.

3 – انضمّت كتائب المرابطين إلى لواء الإسلام المركزيّ في ريف دمشق في شهر تشرين أول 2012. وعملت تحت اسم هذا اللواء في دير الزور قبل أن يتشكّل جيش الإسلام كما مرّ سابقاً في هذا البحث.

4– تنتمي عائلات المزعل والدهش والزعال، المقيمة في قرية الحريجي، إضافةً إلى ستة عائلاتٍ أخرى تسكن مدينة الشحيل، إلى فرع العداد، المنتمي بدوره إلى فرع الصالح الحمد، أحد البطون الرئيسية لعشيرة البوكامل، التي تؤلف، مع عشيرتي «الكمال» و«الزامل» الشقيقتين لها، النواة الأساسية لقبيلة العكيدات، كبرى قبائل محافظة دير الزور.

5 – من مبلغ مليون ليرة الذي حصلت عليه المرابطون، تمّ شراء: مضادّ طيران مع شاحنة دفع رباعيٍّ حاملةٍ له، مدفع هاون مع قذائفه، 10 بنادق روسية، 5000 طلقة روسية، 3000 طلقة بي كي سي، حافلة صغيرة. وتوزيع رواتب لحوالي 100 مقاتلٍ من عناصر المرابطين.

6 – من حديثٍ مع الدكتور علي المزعل.

المزيد من الدماء

كان مفاجئاً للمزعل أن يشنّ أبناء الدهش هجوماً على البئر ويسيطروا عليه، ومفاجئةً كذلك السهولة التي تمّ بها ذلك، ومحرجاً أشدّ الإحراج لأبو خطّاب أن يحدث ما حدث؛ فقرّرت العائلة أن تتولى زمام المبادرة مرّةً أخرى، وتشنّ هجوماً معاكساً لاسترداد البئر من الدهش. وكانت النتيجة سقوط قتيلين في صفوف الأخيرين، إضافةً إلى عشرات الجرحى من الجانبين. أسهم تدخل الهيئة الشرعية في المنطقة الشرقية، عبر ذراعها التنفيذية المتمثلة في جبهة النصرة وقوىً أخرى، في تهدئة الصراع إلى حدٍّ كبير ثم تجميده مؤقتاً، بعد ابتعاد المزعل عن المشهد لأنهم أصبحوا طرفاً مطلوباً للثأر. وقع البئر تحت سيطرة الهيئة الشرعية لمدة عشرة أشهر تقريباً، ابتداءً من منتصف صيف 2013، تخللتها بعض النزاعات الخشنة بين الأطراف المنتمية إلى الهيئة، وخاصّةً بين جبهة النصرة ولواء مؤتة، ولكن دون وقوع ضحايا.

الشرعيّ الغاضب الذي أحرق البئر

أدّت المشاحنات بين الأطراف العشائرية والعسكرية المستفيدة من البئر، وعلى رأسها كلٌّ من جبهة النصرة ولواء مؤتة، إلى توقف البيع بانتظار أن يتفاهم الجانبان على صيغة تقاسم حصص جديدة، ترتفع فيها حصّة مؤتة والأطراف العائلية والعشائرية المرتبطة به على حساب النصرة والأطراف العائلية والعشائرية المرتبطة بها. وفي الخفاء نجح أبناء المزعل في عقد اتفاقاتٍ خاصّةٍ مع مؤتة، وهم المنتمون كذلك، مثل غالبية مقاتلي مؤتة، إلى فرع «الصالح الحمد»، أحد البطون الرئيسية لعشيرة البوكامل. اعتبر توقف البئر انتصاراً لمؤتة على جبهة النصرة، وكسراً لهيبتها لم يُطِقه مقاتلوها، مما هيأ الأجواء لتطوّراتٍ خطيرةٍ قد تعصف بالجسم العسكريّ لتشكيلات الهيئة الشرعية كلها.

بعد شهرين تقريباً من توقف عمليات البيع بسبب التناحر بين النصرة ومؤتة، هدّد شرعيٌّ غاضبٌ، على قبضات اللاسلكي، بإحراق البئر إن لم تتفق الأطراف المتنازعة خلال مهلةٍ محدّدة. انقضت المهلة ولم يعلن الطرفان عن توصلهما إلى أيّ اتفاق، لتندلع النيران يوم 21 شباط 2014 في بحيرة النفط إلى جانب البئر، وتحرق أكثر من 500 مليون ليرةٍ (3،35 مليون دولار وقتها تقريباً)، بحسب تقديرات أبناء المزعل لقيمة النفط المتجمّع بالتدفق الذاتيّ خلال مدّة توقف البيع، في واحدٍ من أكثر المشاهد جنوناً وطغياناً واستهتاراً.

وبعد أن أفرغ مشهد ألسنة اللهب طاقة الحمق من أنفس المتصارعين أذعنوا لقليلٍ من التعقل الذي نادى به بعضهم، فلجأوا إلى صياغة اتفاقية حصص جديدة، توسّعت فيها دائرة المستفيدين داخل عشيرة البوكامل، وخاصّةً منهم أبناء القرى المنتشرة على نهر الخابور. أعيد تشغيل البئر بناءً على هذا الاتفاق الذي استمرّ العمل بموجبه إلى أن قطع تنظيم «الدولة الإسلامية» طرق تجارة النفط إلى محافظة حلب والشمال السوريّ، قبل أن يجتاح المحافظة كلها في حزيران وتموز 2014.

نظرةٌ متفائلة على عالمٍ سيِّئ السمعة

ناصر عنتابي

يميل الكثيرون منا إلى إلقاء اللائمة على «العالم»، وإلى تحميله مسؤولية الأوضاع الكارثية التي مرّت وتمّر بها البلاد. يظهر هذا جلياً من خلال شتم الدول الغربية التي تمثّل، بمنظوماتها السياسية والفكرية والاجتماعية، صورة هذا العصر وعالمه الذي «وقف عاجزاً» عن مدّ يد العون في المحنة الكبرى التي نشهدها. في الوقت الذي لا تجد فيه ألسن المحللين إلا عبارات التكالب والتآمر الدوليّ على القضية السورية كتفسير سهل لما يحدث. وبالتأكيد، لا نحتاج إلى الكثير من الأدلة لبيان الصورة السوداء غير المألوفة التي وصلت إليها حالنا، ولا للحديث عما وجب على دول العالم فعله لنجدتنا، ولكي يتجنب مئات الآلاف فقدان حيواتهم وأعزائهم وتجارب الاعتقال وآلاف البراميل التي ألقيت. مع ذلك، قد لا تضّر محاولة رؤية هذا الأمر من زاوية أخرى.

بعيداً عن الخوض في أصوله التاريخية؛ يلعب إرث العداء للغرب عموماً دوراً أساسياً في تكوين هذه النظرة. خاصّةً عندما لم تتطابق مفاهيم الحرية والمساواة وحقوق الإنسان، التي تقوم عليها مجتمعات وسياسات الدول الغربية الكبرى ومنظماتها، مع أدائها العمليّ في القضية السورية. في الوقت الذي تُدرَك فيه تلك المفاهيم على أنها سلعٌ وقوالب أزليةٌ ثابتةٌ تُصدّر وتستورد وتُسوّق، فيما يحتكر الغرب والعالم حقوق تصنيعها. من وجهة النظر هذه؛ يبدو كلّ ما يخصّ هذه الحقوق الإنسانية محض تآمر.

بينما يُنسى أن الثورة خرجت للحصول عليها بالدرجة الأولى، بعد دوام الشعور بالعجز والظلم لسنواتٍ طويلة تحت ظلّ سلطة آل الأسد التي يُلام الغرب أيضاً على «جلبها». لذا لا يعدّ من المبالغة أن يقال إنّ هذا التصوّر تجاه الغرب وعالمه يقوم على فكرةٍ خلاصية، إذا لم نشأ تسميتها بالدونية، بمعنى أنّ على الآخر -الدول الغربية هنا- أن يكون المخلّص من مشاكل يُفترض أنه أسهم في صناعتها تاريخياً. وهنا تُرحّل المشاكل وأسبابها كلها عليه بشكلٍ مطّرد كلما ضعف الإيمان بالإرادة البشرية «الثورية» التي تسهم في صنع الحدث وتغيير الواقع، فضلاً عن زيادة الاستسلام للخلاصات التاريخية المملة التي كرّرها آل الأسد أنفسهم وإن بأشكال أخرى. بات من المفروغ منه الآن الحديث عن كيف استغلّ النظام، مثله مثل غيره من أنظمة الجوار البائدة، قضية تحرير فلسطين ومعاداة الإمبريالية في سبيل البقاء على رأس سلطات البطش. إذ كانت معارك المصير والوجود -وفق القاموس البعثيّ- هي الهدف النهائيّ الذي يستوجب الخضوع والسكوت في سبيله، وتأجيل التفكير بالحقوق الفردية والجماعية إلى أن تتحقق الأهداف السامية التي حدّدتها هذه الأنظمة في الشعارات الفارغة التي رُدّدت لعقودٍ طويلة. عند ذلك الحين فقط، سيأتي الفرج والخير النهائيّ إلى حياة العباد. وعلى هذا المنوال ينسج البغدادي ونصر الله وأشباههم من فضلات عصور السلطات المطلقة التي لا تمّس، والذين يهاجمون بدورهم «كذب» العالم وقيمه وادعاءاته، كلٌّ من قوقعته وبطريقته، لينعكس هذا كله بشكل أكثر ظلامية، كرهاً دموياً للدول والشعوب والعالم، ومزيداً من الاغتراب عنه.

مرّت معظم الدول الكبرى بمراحل الثورات والحروب المدمّرة، ورزح بعضها الآخر تحت حكم ديكتاتوريات وأيديولوجيات مجنونة، في وقتٍ لم يكن فيه البشر بهذا القرب من بعضهم، ولم تكن فيه الحرّيات وحقوق الإنسان ضمن دساتير دولهم كما هو حاصل الآن. وباستنتاج بديهيٍّ يصعب تخيّل وجود شعب راضٍ، بكل ما أوتي من عقل، بأوضاعه الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية حتى في أكثر الدول رفاهية، إذ ما زال العمل على تطوير أنماط الحياة قائماً في مختلف المجالات، بالتوازي مع ارتفاع الحسّ الإنسانيّ تجاه قضايا الآخرين، شعوباً ودولاً وأفراداً. هكذا تصبح صورة الطفل إيلان على الشاطئ حديث العالم، وهكذا تمتلك القوى العظمى أسلحةً تكفل تدمير كلّ شيء، لم يسبق أن امتلكها البشر من قبل، دون أن يمتلئ العالم بالحروب سوى عندنا.

في وسط خرابنا الراهن، يصعب أن نأمل الكثير من «العالم»، لكننا لسنا إلا جزءاً من مجتمعاته ودوله وتطوّره، نشقّ طريقاً صعباً نحو مستقبلٍ أفضل، حتى لو لم يعجبنا ذلك. وهذا ما أعطته لنا الثورة في أوّل دروسها.

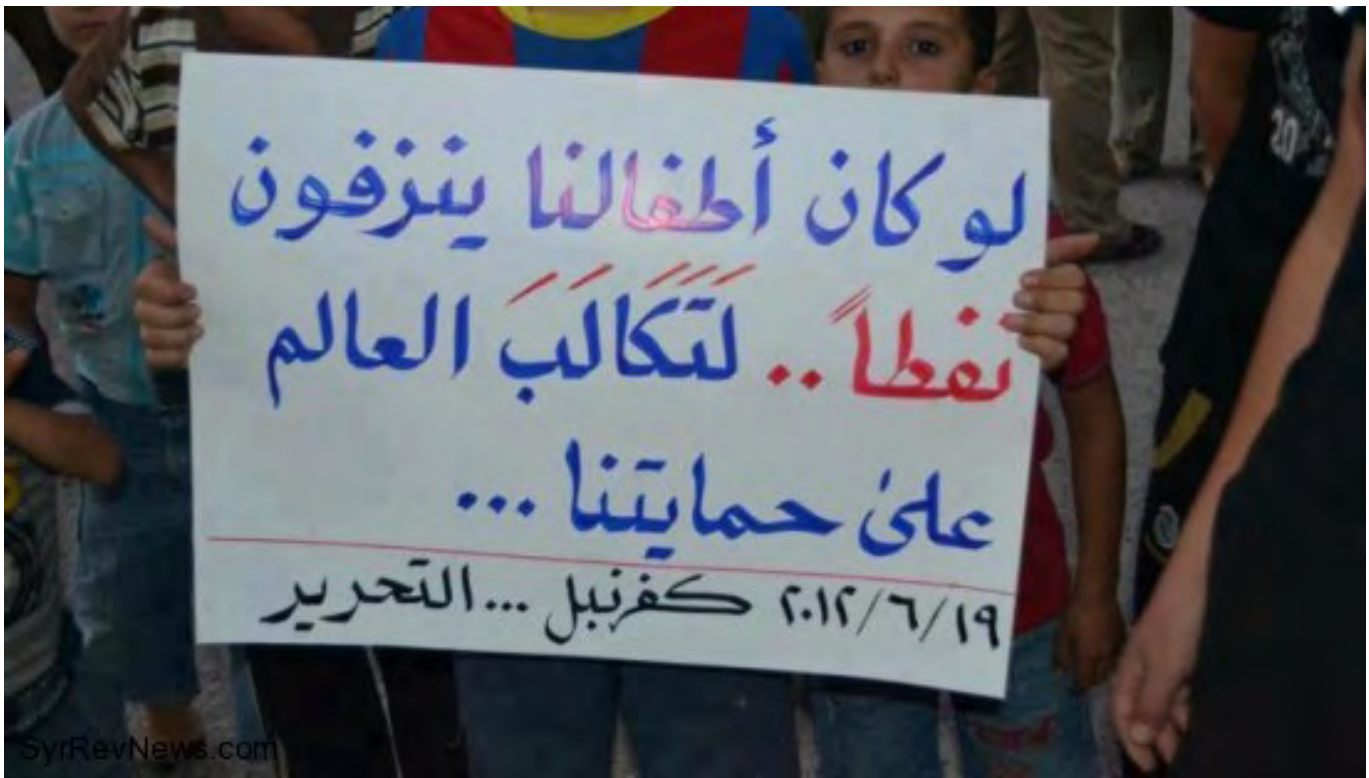

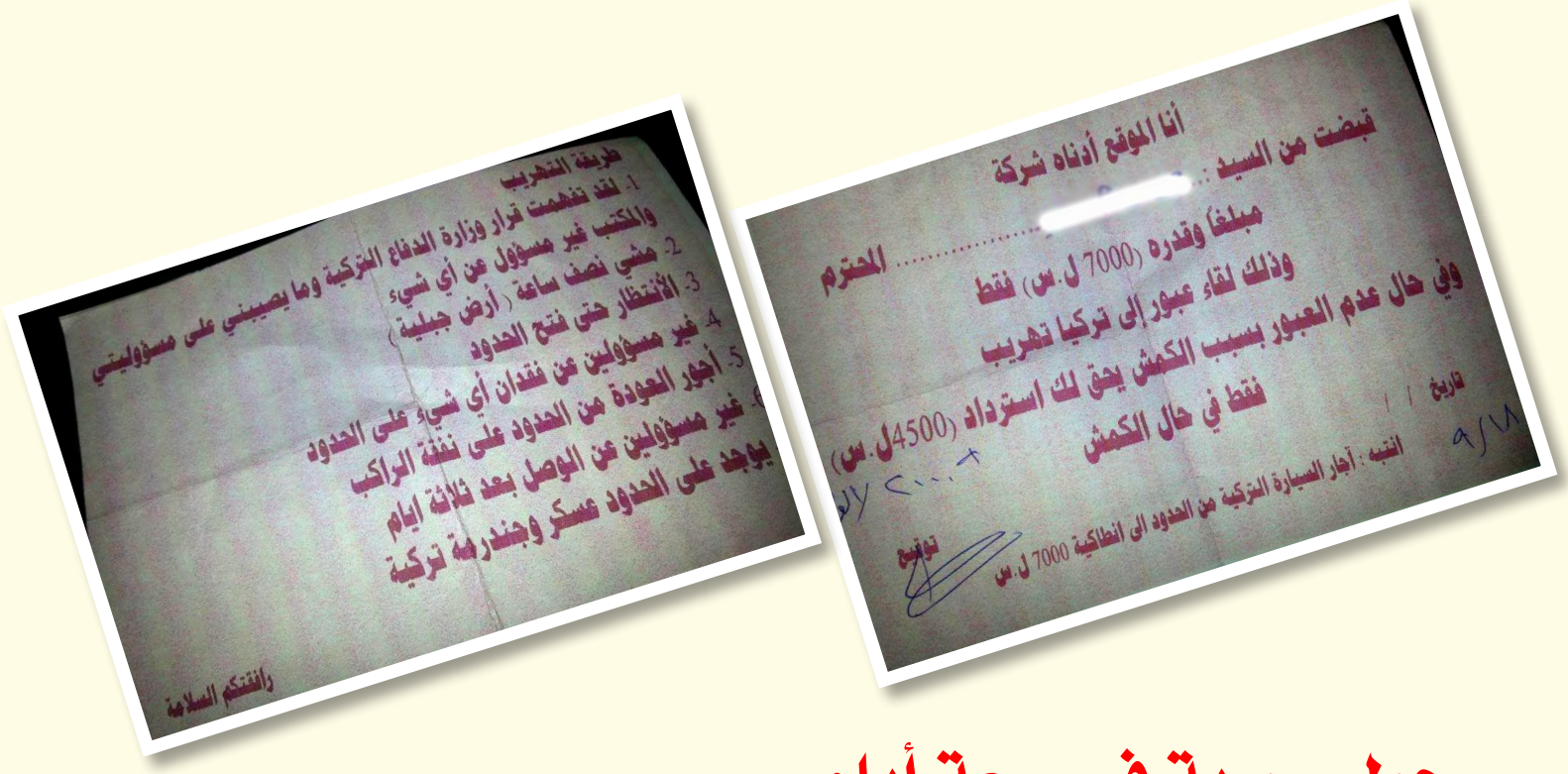

حول سورية في سبعة أيام

أنطاكية - خاص عين المدينة

يروي أحمد، وهو خرّيجٌ جامعيٌّ في الثلاثينات من العمر، رحلته الطويلة من دمشق، مروراً بمختلف القوى على الأرض، بهدف الهروب من البلاد إلى تركيا ومنها إلى الملجأ الأوروبيّ. مثل الكثيرين لم يستطع أحمد السفر عبر الطرق النظامية، لا لأنه مطلوبٌ للأجهزة الأمنية أو للخدمة العسكرية، بل لأنه فلسطينيّ.

منطلق النزوح

خرجنا من مخيم اليرموك في كانون الأول 2012، بسبب قصف النظام بطائرة الميغ لجامع عبد القادر الحسيني الذي كان يؤوي نازحين. وقتها قرأ الناس الرسالة فخرجوا في نزوح جماعيٍّ خلال ليلةٍ واحدةٍ ساعد فيه الأمن بتأمين باصات النقل الداخليّ، في رسالةٍ ضمنيةٍ بأن المخيّم سيصبح منطقةً عسكرية. بعد مدّةٍ ذهبنا لنجلب بعض الأغراض من المنزل فحوصرنا لأيام هناك. وبعدها لم أعد مطلقاً. نزحنا إلى منزلٍ أقارب في دمشق القديمة، حيث كنّا 32 شخصاً في غرفتين. استمرّ هذا الوضع لسنة، قبل أن يبدأ تسرّب أفراد العائلة باتجاه أوربا.

كنت رافضاً لفكرة السفر في البداية بسبب عدم توافر المال الذي خسرناه لأنه كان على شكل عقاراتٍ لم نعد نستطيع الوصول إليها. جاءني أحد السماسرة المرتبطين بالنظام ليعرض عليّ شراء منزلنا الذي كان سعره يقدّر بثمانية ملايين ليرة سورية (160000 $ وقتها) بما يساوي حوالي 700 دولار! رغم ذلك فقد باع بعض معارفنا منازلهم في المخيّم بسبب احتياجهم إلى مبالغ فورية للهجرة، ولأن السماسرة أقنعوهم باستحالة العودة إليها نهائياً.

دمشق النظام

في دمشق تبدأ المعاناة من الحواجز: «ليش مانك بالجيش؟». لم يعد عناصر الحواجز يتقبلون فكرة وجود شابٍّ مدنيٍّ، فكانوا يضايقوننا على الدوام، رغم أنني أنهيت الخدمة العسكرية ولم أطلب للاحتياط. كانت الاستفزازات تهدف بطريقة غير مباشرةٍ إلى دفع الشاب إلى التطوّع في الدفاع الوطنيّ أو سواه من قوّات النظام، ليمنع عن نفسه الإهانات ويحصّل حدّاً أدنى من الدخل والمشاركة في السلطة، أو تهدف إلى دفع الناس إلى السفر. يرى مقاتلو النظام أن الشخص المدنيّ يطيل في عمر الأزمة التي لا تحلّ إلا بالسلاح، وهو لا يشارك في هذا «الحل».

بعد أن تعرّضت لخطر الإصابة بالقذائف القادمة من ريف دمشق مراراً، بسبب الانتشار الكثيف للمراكز الأمنية بين المناطق السكنية، ولانعدام المستقبل، واستفزازات الأمن وإهاناته، وفقدان فرصة العمل بسبب أفضلية التوظيف لأبناء «الشهداء»، وأولاد المقاتلين والواسطات، وبعد أن قرأت على أحد الجدران عبارة كبيرة تقول: «أحد أحد، أسد أسد، أبد أبد»؛ قرّرت الهجرة.

الطريق الطويل

لا يستطيع الفلسطينيّ السوريّ السفر إلى تركيا التي تطلب منه فيزا، بينما يستطيع السوريّ السفر بالطائرة أو بالباخرة. إضافة إلى قرارٍ سرّيٍّ شاع خبره في تموز الماضي، أصدرته السلطات السورية بالتعاون مع السلطة الفلسطينية، بمنع خروج الفلسطينيين من سورية بوصفها "دولة ممانعة"، ولئلا يفقدوا "حقّ العودة" وفق اتفاقية دبلن. وتولى تنفيذ هذه المهمة حاجز القطيّفة الشهير. بعد رشاوى (بسبب أوامر شفوية بمنع سفر الفلسطينيين عبر المطار ولو في الرحلات الداخلية) استطعنا الوصول إلى مطار دمشق للسفر ظاهراً إلى القامشلي، وهناك بدأت رحلة سفري التي طالت أسبوعاً إلى تركيا. كنا 17 فلسطينياً، كلٌّ منا اشترى رجال الأمن بطريقته.

مناطق السيطرة الكردية: عدد العرب قليلٌ جداً في القامشلي. اللغة الكردية هي السائدة في الحديث وأسماء المحلات وعلامات الطرق. حواجز عديدة وضخمة لوحدات الحماية تضيّق على غير الأكراد خارج حدود المدن. أما داخل القامشلي فلاحظت انتشار الأمان والتنظيم والإدارة المحلية الجيدة في الخدمات، حتى أنها أفضل

من دمشق. أما في عين العرب/ كوباني فيمنع دخول غير الأكراد نهائياً، وحتى الأكراد من غير أبنائها يُمنعون من دخولها دون «كفيل» وموافقة أمنية. يختلف الوضع في الحسكة إذ تبدو معالم النظام بقوة، الأمن والجيش والدفاع الوطنيّ حتى بداية حدود الرقة. بسبب التوتر الكرديّ التركيّ وصل خطّ التهريب إلى درجة من الخطورة قد تبلغ القتل، فقرّرت البحث عن طريق آخر.

مناطق سيطرة داعش: قبل أن نصل إليها بدأت تعليمات السائق: التدخين وأيّ وجود للتبغ ممنوع؛ النساء تتحجّب بالأسود بالكامل وتجلس في آخر الميكرو وتُمنع من حمل أوراقها الثبوتية التي يجب أن تبقى مع المحرم الذي يتولى الإجابة في حال السؤال؛ الشخص الحليق يخفي نفسه بين الركاب؛ لا تناقشوهم واحتملوا التخويف والاستفزاز.

استوقفنا سوريٌّ على الحاجز، بينما بقي المهاجر الأعلى منه رتبةً جالساً في مكانه. اعتبرنا العنصر شبّيحةً لأننا فلسطينيون من جهة ولأننا قادمون من دمشق من جهة أخرى، فضلاً عن البحث عن الأكراد لأن الميكرو قادم من القامشلي. هويات النساء تُغطّى بلاصق أسود على الوجه. تفتيشٌ دقيقٌ عن الدخان. تخويفٌ وجلافةٌ دون إهانة، ثم مررنا بسلام. مدينة الرقة فارغة، حتى لم نلحظ وجوداً مكثفاً لداعش. تقوم الأعمال على ميكانيك السيارات متعددة الأنواع بشكل لافت، وعلى التكرير البدائيّ للنفط، مما يخلّف سماءً سوداء وتلوّثاً شمّياً ملحوظاً وبسطاتٍ لا تنتهي لبيع قناني البنزين والمازوت، وكأن المدينة كلها منطقة صناعية. الوجوه شاحبة. أصوات المولدات في كل مكان. محلات بيع المنتجات الطبيعية، كالمواد الغذائية أو الألبسة، قليلةٌ جداً. هناك عددٌ هائلٌ من المحلات المغلقة وقد كتب عليها: «مكتب الخدمات الإسلامية». بخلاف أراضي داعش في ريف حلب التي انطلقنا إليها، فقد كانت أفضل رغم أنها تعاني من آثار الدمار. بتنا ليلتنا عند مهرّب من منبج. دخّنّا بكثافة، وانطلقنا صباح اليوم التالي باتجاه الحدود.

الكتائب الإسلامية والجيش الحرّ: قطعنا آخر حاجز لداعش ليستقبلنا حاجزٌ لجبهة النصرة. كان عناصرها ألطف و«أحنّ»، وبنيتهم أكثر صحّة من الدواعش. معظم الحواجز بعد ذلك كانت للجبهة الإسلامية التي كان عناصرها كرماء معنا حتى في التحية والحديث والنصح. وجدنا بعد أيام من السفر طعاماً وقهوةً ودخاناً في الاستراحات، وتغطيةً للموبايلات كانت قد انقطعت منذ خروجنا من الحسكة.

أخذنا طريقنا إلى الدانا، حيث يتجمّع المهرّبون. أعطونا «الوصل» (مرفق في الصورة) وانطلقنا باتجاه خربة الجوز وسط طريق مليء بآثار المعارك، دباباتٌ ذائبةٌ ودمارٌ كبيرٌ للبيوت والجسور ضمن طبيعة ساحرة.

> تنصّ اتفاقية دبلن على أن أيّ إنسان «بلا وطن» يبصم، عند طلب اللجوء في دول الاتحاد الأوربيّ، على ورقة خاصّة لا يحقّ للدولة المضيفة بموجبها إخراجه مدى الحياة، وتتكفل بمعيشته، وبعد مدّة يحقّ له التقدّم بطلب للحصول على جنسيتها، وفي المقابل يسقط عنه «حقّ العودة» الخاصّ بالفلسطينيين. ولذلك تشجّع إسرائيل لجوءهم وحصولهم على الجنسيات الأوربية وغيرها.

التهريب

في الليل جاءنا يافعون هم «المهرّبون» الفعليون، بإشراف شباب أكبر سناً يشكلون ما يشبه مجموعة استطلاع، بإشراف منسّق عمليات ثلاثيني يفرز المجموعات حسب طبيعة العابرين: شباب، عائلات، عجائز. بينما كانت مصفحة «العقربة» التركية، المزوّدة بكشافات ضوء وأجهزة حساسة للحركة ومناظير ليلية، تجول في المكان.

كانت مجموعتنا من 18 شخصاً من الشباب. اكتشفنا فيما بعد أن المهرّبين يستخدمون الشباب كطعم للجندرمة التركية لكي تلاحقهم وتتمكّن العائلات من المرور بشكل أسهل. أخذنا نتراكض بسرعة شديدة. وصل منا 12، والباقي وقعوا على الأرض فأمسك بهم الأتراك. وصلت العقربة إلى ورائي وصوتٌ منها ينطلق قائلاً بعربية مكسّرة: «نو نو، لا تهرب، ما بضربك». لم أستجب وتابعت بسرعة على طريق البحص حتى غاب الصوت وصرت داخل الأراضي التركية. تنفست بعمق. وها أنا أنتظر بداية المرحلة الثانية من رحلتي إلى إزمير.

شبكة التهريب:

أبو حسين (دمشق): تأمين حواجز المطار حتى الوصول إلى القامشلي.

أبو إسماعيل (القامشلي): تأمين المنامة والسكن.

أحمد الكردي: سائق فان اختصاصه التوصيل من القامشلي إلى أطراف الحسكة، مروراً بحواجز وحدات حماية الشعب والأسايش.

أبو عبد السلام: من حدود الحسكة إلى منبج، مروراً بحواجز النظام وداعش (بدويّ متخصّص بكلّ القوى في البادية).

أبو حسن: المضيف في منبج.

أبو سامر: سائق «داعشيّ» من منبج إلى آخر حدود داعش قرب إعزاز.

أبو طلال: من أول حاجز لجبهة النصرة قرب إعزاز إلى الدانا حيث مركز «الشركة» التي يديرها «الحوت».

أبو محمد: سائق من الدانا إلى الحدود.

أبو صبحي: «مدير عمليات» التهريب عبر الحدود.

خليل: مهرّب صغير (16 سنة) مختصّ بالشباب.

منسّق سوريّ للسيارة التركية: يحاسب ثم يستقدم السيارة.

سائق تركيّ: أوصلنا إلى مفترق طرق قرب إحدى القرى التركية.

سائق تركيّ ثانٍ: تسلمنا من الأول وأخذنا إلى كاراج أنطاكية.

تركيّ متوسط العمر: تولى حجوزات سفرنا إلى مقاصدنا في المدن التركية المختلفة.

حرب روسيا "المقدّسة" على سوريا

بكر صدقي

لعل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية اضطرّت إلى وصف حرب بوتين على سوريا بالقداسة لافتقاد هذا العدوان الصريح على شعب بلدٍ آخر لأيّ تبريرٍ أخلاقيٍّ أو أيديولوجيّ. وهو نتيجةٌ طبيعيةٌ لافتقاد النظام المافيويّ الحاكم في موسكو نفسه لأيّ غطاءٍ أيديولوجيّ، واستغراقه بصورةٍ تامّةٍ في «قضيته» الوحيدة وهي التمسّك بالسلطة إلى الأبد. أي أنه، على طريقته، نظامٌ شبيهٌ بنظام الأسد الكيماويّ، يحفل سجله الإجراميّ باغتيال الصحفيين المعارضين وغزو البلدان المجاورة، إضافةً إلى تدمير مدينة غروزني على رؤوس سكانها. وقد ابتكر بوتين طريقةً فريدةً للتمسّك بالسلطة رغم أنف الدستور، وذلك من خلال تنقله بين رئاسة الوزراء ورئاسة الدولة، بالتبادل مع تابعه المخلص مدفيديف، كلما بلغ الحدّ الزمنيّ للمنصب كما ينصّ عليه الدستور الروسيّ المعمول به. إلى ذلك، لم يحرز هذا النظام الدكتاتوريّ المافيويّ أيّ إنجازاتٍ يمكن أن تسجّل له على الصعيد الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ من شأنها أن تغطي نسبياً على دكتاتوريته وفساده. بدلاً من ذلك مارس البلطجة على الدول المجاورة التي سبق واستقلت عن الإمبراطورية السوفييتية التي طواها التاريخ قبل ربع قرن، وكان آخر أمثلتها ضمّه جزيرة القرم ودعمه للانفصاليين في شرق أوكرانيا في حربهم على السلطة المركزية في كييف.

بل بلغت به الوقاحة أنه لام التحالف الغربيّ الذي عمل على إسقاط جزّار ليبيا المعتوه معمر القذافي، بدعوى تجاوز التحالف لما سمح به قرار مجلس الأمن ذو الصلة الذي نجا، في حينه، من الفيتو الروسيّ. هذا الفيتو المشؤوم، مع شقيقه الصينيّ، رفع في مجلس الأمن أربع مرّاتٍ لحماية نظام البراميل والكيماويّ في دمشق من أيّ إدانةٍ دولية، مجرّد إدانةٍ على ما ارتكبه بحقّ سوريا والسوريين من مجازر فظيعةٍ وخرابٍ عميم، إضافةً إلى تهجيرٍ قسريٍّ شمل نصف السكان.

وتذكّرنا «قداسة» الحرب الروسية «الأرثوذكسية» على سوريا بسوابق راهنةٍ وأخرى أقدم. أما الراهنة فتتعلق بالحرب الشيعية الإيرانية-اللبنانية-العراقية-الأفغانية على الشعب السوريّ تحت شعارات «لبيك يا زينب» و«لبيك يا حسين» وما إلى ذلك من شعاراتٍ مذهبيةٍ تصبّ جام حقدها على «عدوّها السنّي» لا لشيءٍ إلا لأنه سنّي. استنهاض الأحقاد الشيعية الدفينة من قبل الفاشية الدينية الحاكمة في طهران، يشمل، إلى سوريا، كلاً من العراق ولبنان واليمن والبحرين وبلدانٍ أخرى، خدمةً لأحلام إمبراطوريةٍ فارسيةٍ تداعب نخبة الحكم في إيران، لكن من شأنها إشعال حروبٍ طائفيةٍ مذهبيةٍ عبر الاقليم الملتهب، قد لا تنجو منها إيران ذاتها، وهي دولةٌ إمبراطوريةٌ هشّةٌ تتكوّن من تنوّعٍ عرقيٍّ ومذهبيٍّ قابل للانفجار إذا توافرت أسبابه، وهي وفيرةٌ في بلدٍ يئنّ تحت وطأة عقوباتٍ اقتصاديةٍ (لم ترفع بعد بموجب الاتفاق النوويّ الأخير) وحصارٍ اقتصاديٍّ ونزيفٍ كبيرٍ في الموارد بسبب المساهمة السخيّة في دعم نظام دمشق وحزب اللّه اللبنانيّ والحوثيين في اليمن والمعارضة الشيعية في البحرين، وغيرها من الجماعات الموالية لنظام الوليّ الفقيه في المنطقة العربية.

هذه الحرب الإيرانية الشيعية، أدّت وستؤدّي إلى ازدياد وزن الحركات السنّية الأكثر راديكاليةً، السلفية والسلفية الجهادية، في المجتمعات السنّية العربية، كردّة فعلٍ متشنجةٍ على الاختراق الإيرانيّ-الشيعيّ، وبخاصّة في كلٍّ من العراق وسوريا حيث نشهد صعود مظلوميةٍ سنّيةٍ محقّةٍ تحوّلت إلى حاضنةٍ اجتماعيةٍ للتطرّف السلفيّ الجهاديّ، مساهمةً بذلك في تخريب الثورة الشعبية وإجهاض أحلامها في دولةٍ ديموقراطيةٍ مدنيةٍ حديثة.

أما السابقة الأقدم لـ«لحروب المقدسة» فهي حرب جورج بوش الابن «الصليبية» على الإرهاب، في أعقاب «غزوة» الحادي عشر من أيلول 2001 التي ما زالت منطقتنا تدفع ثمنها إلى اليوم، وبضمنها المأساة السورية التي يشكل انكفاء إدارة أوباما أحد أسبابها. وهو الانكفاء الذي أعقب عهد جورج بوش بهدف إصلاح الأضرار التي تسبّب بها المحافظون الجدد. كان بوش يؤمن، من كلّ عقله الصغير، بأنه مكلّفٌ من الله بجهادٍ مقدّسٍ ضدّ الإرهاب الذي تمّت مطابقته مع دين الإسلام.

الحرب الروسية الأرثوذكسية المقدّسة على الشعب السوريّ، تضاف إلى الحرب الإيرانية الشيعية المقدّسة، لتخلق بيئةً مناسبةً لزيادة التطرّف السنيّ المقابل، ولتتحوّل أرض سوريا إلى ساحةٍ للحروب «المقدّسة». هذا الوضع ينذر بكارثةٍ يمكن تستمرّ مئة عام، ما لم نتدارك الخطر ونجد طريق الخلاص.

قبل التفاوض مع الأسد عليه أن يوقف جرائمه بحقّ المدنيين

كينيث روث*
الغارديان/ 28 أيلول
ترجمة مأمون حلبي

إن الحاجة التي تدفع إلى التفاوض مع قادةٍ مرفوضين أخلاقياً إلى الدرجة التي بلغها بشار الأسد هي واقعٌ مؤسفٌ للدبلوماسية، لكن على القادة الغربيين ألا يخلطوا تلك الضرورة بالفكرة التي تسوّق لها روسيا، والتي ترى أن الأزمة السورية يمكن حلّها فقط إذا بقي الأسد في السلطة، وعليهم ألا يعتقدوا أن حكم الأسد هو الطريقة الوحيدة لمنع انهيار الدولة السورية وحماية الجماعات المتنوّعة فيها.

فمنذ وقتٍ طويل يحاول فلاديمير بوتين أن يصوّر الأسد كصخرةٍ يُكسر عليها من يسمّون أنفسهم تنظيم الدولة الإسلامية. لكن، على العكس من كونه عامل استقرار أو حلاً لتهديد داعش، الأسد سببٌ رئيسيٌّ لصعود الجماعات المتطرّفة في سوريا. ففي بدايات الانتفاضة السورية، بين تموز وتشرين الأول 2011، أطلق الأسد سراح عددٍ من الجهاديين الذين سبق وقاتلوا في العراق، وكثيرٌ منهم لعبوا فيما بعد أدواراً قياديةً ضمن الجماعات الإسلامية المتشدّدة، لكنه أبقى في السجون أولئك الذين ساندوا الانتفاضة السلمية. ساعد إطلاق سراح الجهاديين على تغيير الطبيعة العامة للتمرّد من كونه تمرّداً ينشد، بشكلٍ رئيسيٍّ، أهدافاً ديمقراطيةً إلى تمرّدٍ يهيمن عليه الجهاديون. مكّن هذا التحول الأسدَ من أن يعيد تركيز سردية الأحداث من حكمه الوحشيّ إلى الاستحالة المزعومة للاستغناء عنه في القتال ضدّ داعش. حالما أصبحت داعش قوّةً كبيرةً، بعد استيلائها على الرقة في 2013، تجنّبت قوّات الأسد مواجهتها إلى حدٍّ كبير. ازداد النزاع بين الطرفين منذ صيف 2014، لكن لعدّة شهورٍ حاسمةٍ ترك الأسد داعش وشأنها إلى حدٍّ كبير، متيحاً لها توطيد «خلافتها»، وركّز قوّته النارية على عناصر أخرى من المعارضة المسلحة. والأهمّ من هذا، كانت فظاعات الأسد عامل استقطاب للمقاتلين باتجاه داعش والمجموعات المتطرّفة الأخرى.

إن الحرب السورية في غاية البشاعة، لأن الأسد قد اختار خوضها ليس باستهداف المقاتلين المعارضين فحسب، بل أيضاً بالقيام بهجماتٍ عشوائيةٍ ضدّ المدنيين في المناطق الخاضعة لسيطرة المعارضة. وتدرّجت أدواته في ذلك من حرمانهم من الطعام والرعاية الطبية وصولاً إلى البراميل المتفجّرة سيئة الصيت. أما النتيجة، فقد كانت دماراً تاماً لقطاعاتٍ واسعةٍ من الغوطة وحلب وإدلب ودرعا ومناطق أخرى تحت سيطرة المعارضة. هذا النوع من الحرب، الذي يستهدف المدنيين، سببٌ أساسيٌّ لهروب اللاجئين، نظراً إلى أن هكذا حرب تعني أن الكثيرين لا يستطيعون إيجاد مكانٍ آمنٍ في بلدهم. الأسباب الجلية التي تكمن خلف إستراتيجية جرائم الحرب التي يمارسها الأسد هي إفراغ مناطق المعارضة من السكان والإشارة إلى السوريين الآخرين أنهم أيضاً سيهاجَمون إن سيطرت المعارضة على مناطقهم. الفوضى والفراغ الناتجان عن هذا الأمر سهّلا على داعش والمجموعات المتطرّفة الأخرى استقطاب المقاتلين بالقول إنهم الوحيدون الذين يعارضون بشكلٍ فعالٍ هذه الفظاعات الجماعية. ولقد كانت الكراهية الموجّهة للأسد واضحةً في الصعوبة التي عانتها الولايات المتحدة في محاولتها استقطاب متطوّعين يقاتلون تنظيم داعش فقط. في الحقيقة، إن أكبر تهديدٍ للدولة السورية هو الغضب الذي تخلقه طريقة شنّ الحرب من قبل الأسد. تختلف الهياكل الحكومية كلّ الاختلاف عن نظام الأسد الذي يسيطر عليها حالياً، لكن كلما طال أمد استخدام الأسد وزمرته لسلطة الدولة في قتل المدنيين كلما تناقص عدد الذين يميّزون بين سلطة النظام وسلطة الدولة. انهيار الدولة، وليس انتقالاً منظّماً للحكم، سيكون أمراً كارثياً إن حصل. إن وضع حدٍّ لهجمات الأسد المنهجة على المدنيين هو أساس أيّ إستراتيجيةٍ واقعيةٍ لاحتواء تنظيم داعش، وإعادة بناء النسيج الاجتماعيّ الذي لا يُستغنى عنه في مواجهة التطرّف وفي الحفاظ على دولةٍ سوريةٍ تؤدّي وظائفها.

وإذا أخذنا بالاعتبار العداوة والبغضاء التي تخلقها هذه الهجمات، فمن المرجّح أن يكون كبحها شرطاً مسبقاً لأيّ محادثات سلام ناجحة. لسوء الحظ، لم تقم روسيا وإيران، داعمتا الأسد الأساسيتان، بأيّ ضغطٍ ملحوظٍ لإيقاف هذه المذبحة. وعلى العكس من ذلك، عارضت روسيا الجهود المبذولة في مجلس الأمن للجم استخدام البراميل المتفجّرة. لقد حان الوقت للكفّ عن إغلاق عيوننا عن هذه الجرائم الفظيعة. إن إيقاف فظاعات الأسد المشينة، وفظاعات غيره من الجماعات الأخرى، يجب أن يكون أوّل بندٍ على جدول أعمال أيّ مفاوضات.

* المدير التنفيذي لمنظمة هيومن رايتس ووتش منذ 1993.

حكاياتٌ من زمن الثورة

محمد عثمان

جمع دلير يوسف مجموعةً من المقالات التي كتبها خلال سنوات الثورة ونشرت في منابر متعدّدة، كالسفير والحياة وسوريتنا وموقع ألف، في هذا الكتاب الذي أصدره بيت المواطن للنشر والتوزيع، ضمن سلسلة شهادات سورية (5)، عام 2014، بعنوان «حكايات من هذا الزمن».

تتناول المقالات وجوهاً متعدّدةً للثوّار، ولأماكن ساخنة، وانطباعاتٍ ذاتيةً ومشاهداتٍ موضوعية. يرصدها شابٌّ نصفٌ كورديٌّ ونصف عربيّ، بل نصف سوريٌّ ونصف سنّيٌّ أيضاً، تنقّل عبر معظم أراضي سورية خلال الثورة، وخرج منها إلى المهجر وفي جعبته الكثير من القصص.

فها نحن نقطع معه ليلاً طريق التهريب الوعرة من قريةٍ لبنانيةٍ باتجاه الأراضي السورية، بصحبة مجموعةٍ من الشبّان الذين اعتادوا نقل بعض الصحافيين أو الناشطين، وكمياتٍ من الأدوية والتجهيزات الطبية، وأسلحةً وذخائر لمجموعاتٍ من الجيش الحرّ.

وسط عبارات «هالدعسة خطرة»؛ «لا تشغّل ولا ضوّ ولا حتى سيجارة»؛ «دير بالك من الكشافات»... يمرّ الدخول الخطر إلى البلاد. أما الخروج منها فكان أصعب، بعد أن حاصر النظام مدينة العتيبة وبدأ بقصفها، ثم سيطر على الطريق الواصل بين الغوطة وحمص، كما على عقدةٍ طرقيةٍ كان الثوّار يستعملونها، تربط طرق الأردن وتركيا ولبنان والعراق وتصل إلى دمشق. وبعد شهرٍ من الانتظار قرّر أبو مصعب، قائد المجموعة العسكرية التي ستمضي إلى ريف حمص، السير «على بركة الله». تكوّنت القافلة من دراجةٍ ناريةٍ يقودها مستكشف الطريق، وسيارة بيك آب فيها شخصان يعرفان البادية السورية، وسيّارتَي جيب فيهما بعض قادة الكتائب، وشاحنةٍ كبيرةٍ فيها ما يقرب من خمسين مقاتلاً، وشاحنةٍ مليئةٍ بالأدوية التي ستصل إلى حمص القديمة المحاصرة آنذاك، جلس فيها كاتبنا بين علب الدواء.

الطريق الذي يستغرق ساعةً ونصف الساعة، في العادة، استهلك تسع ساعاتٍ ليليةٍ طويلةٍ من أعصاب السائرين فيه، على بعد كيلومتراتٍ عن قطع لجيش النظام، وسط بردٍ قارسٍ ورمالٍ متطايرةٍ تلسع الوجوه. وكالعادة، يُمنع استعمال أيّ وسيلة اتصال، كما يُمنع التدخين أو تشغيل أيّ ضوء، لأن دبابات الأسد ستقصفه على الفور، وخاصةً إذا كان متحرّكاً... ليلة أمس استشهد ثلاثون رجلاً عند محاولتهم اجتياز طريقٍ قريبٍ من هنا!

«حمص العديّة بتلالها وأبوابا/ ضحّت بالشهدا، غنّينالها سكابا». سيكون بيتي في باب السباع، يقول المؤلف، ووجهتي بابا عمرو. سيمرّ طريقي نحو السحاب من البيّاضة. أمرّ بالخالدية لأصل إلى الساعة الجديدة، وأعبر الساعة القديمة وأرى الناس في حيّ الأرمن، ثم أصف شارع الملعب ومطاعمه ومشجّعي نادي الكرامة. حمص هي التي ستخلّد ذكراي إن كتبت عنها، وهي التي ستحيي البلاد من جديد.

ولكنه يتساءل: «كيف أصف حماة؟». كيف يكتب المرء عن شهداء زُرعوا في الأرض كأشجارٍ في غابةٍ تُحيي نفسها كلّ مرّة؟ أم كيف يكتب عن مناطقٍ تصبح أوسع من المدن، كاليرموك، المخيّم/ الوطن الذي عشقه أبناؤه حتى وهم محاصرون فيه، يموتون جوعاً أو قصفاً بالبراميل المتفجّرة.

يستذكر الكاتب صديقه رامي، الفلسطينيّ الذي رفض الهجرة إلى أوروبا لئلا ينقص عدد المطالبين بحقّ العودة واحداً، وتطوّع في الهلال الأحمر الفلسطينيّ-فرع سورية، وفي ما استطاع من منظّماتٍ محليةٍ أو دولية، ليحمل بعض الأغطية لعائلةٍ شُرّدت، قبل أن يجد نفسه في قبضة السجّان، متطلعاً إلى حقه في العودة إلى الحياة وإلى رسم حنظلة على جدار غرفته في جرمانا. كما يستذكر أبو محمّد المقدسيّ، الصديق الفلسطينيّ الآخر، طالب الإعلام الذي جرفته الثورة السورية منذ مظاهراتها الأولى بسبب ما رآه من متاجرة النظام السوريّ بعدائه لإسرائيل ليقمع الناس. ولكن «تحرير القدس لا يمرّ من درعا»، كما يردّد الناشطون الفلسطينيون كثيراً، ويوافق أبو محمد الذي أسهم في تأسيس عددٍ من الكيانات الثورية، كاتحاد شبكات أخبار المخيّمات الفلسطينية، وشكّل، مع فاروق الرفاعي (المتحدّث الإعلامي لمجلس قيادة الثورة في دمشق وريفها) ثنائياً ذاع صيته في مخيّم اليرموك، لم يوفّرا جهداً يقدّمانه للثورة، كما لم يدّخرا نقداً يوجّهانه لها حين تخطئ.

البوتينيون... طائفةٌ جديدةٌ من أتباع الأسد

حين يحمل الرئيس الروسيّ سيف عليّ، وحين يظهر على حبة خضار

في غمرة احتفالهم بالهجمات الجوّية الروسية، لا يكتفي أتباع بشار الأسد بإسباغ أوصاف القوة الفائقة على الرئيس الروسيّ فلاديمير بوتين، بل يرفعونه إلى سياقاتٍ خرافيةٍ تظهر في بعض المقاطع الإنشائية التي يكتبها موهوبون أسديون، متكئين على محسّنات البلاغة ليأخذ الكلام صبغة القدم والوقار، وليبدو إسلامياً شيعيّ الطابع، متجاهلين أن بوتين ليس مسلماً من الأساس، وربما ليس مسيحياً، كي تؤيده الملائكة في حربه إلى جانب ابن عمه (المؤيَّد هو الآخر بالملائكة) بشار. فتكتب زائرة لصفحة اسمها «نسور الأسد في روسيا الأسد (أبو علي بوتين)» قصيدةً بعنوان «أسد سيبيريا» تقول فيها:

ظهر الحق وانجلى الغبار
بقدوم مقدام غضنفر مغوار
مؤيَّد من قبل الملكوت
مستعين بالسيف العظيم ذو الفقار
رغم أنه أتى من صقيع البلاد
بأنفاس لها لهيب وزئار
اسمه بوتين طالب للحق
ومن يطلب الحق فالحق مدرار
فمن ينصرنا... الله ناصره
فكيف مع آل نمير العظام الشهار
دعاة الحق يدعون له بالنصر
بسيره بركبان ابن الأسد بشار
سيأتيكم يا آل سعود بجيش
لا قبل لكم به، ملائكة من الأرض سهيل وبشار

ولم يكتفِ أتباع الأسد بالشعر في تبجيلهم للرئيس الروسيّ، بل تداول بعضهم معجزاتٍ شاركت فيها حتى الخضار، فكتب أحدهم على صفحته الشخصية على الفيسبوك «ظهور اسم الرئيس ..»بوتين».. على الفلفل الأخضر، والعلماء يقولون إن هذه آية من الله تدل على رضائه على الجيش الروسي في سوريا وتبشره بأن الملائكة يحاربون مع الأسد».

ويجاور الهيام الماورائي ببوتين هيامٌ علميٌّ يظهر على شكل معارف متفاخرةٍ بترتيب الجيش الروسيّ بين أقوى ثلاثة جيوش في العالم، ومزايا أسلحته وقدرتها التدميرية الفائقة. ودوماً لا بدّ من صورٍ لقطعٍ ضخمةٍ من هذا السلاح.

وبين الهيامين يتميّز نبيل فياض بمذهب حبٍّ بوتينيٍّ خاصٍّ، يبدأ بالعتب على المحبوب الروسّي لأنه تأخّر كثيراً في شنّ الحرب، فكاتبنا «ضدّ» هذا التدخل اليوم لأنه تمناه في آذار العام 2011. بل يرفع فياض، وهو «المثقف» المتطرّف في تأييده للأسد ونقمته على المجتمعات الثائرة عليه، في غزليته المنشورة على موقعه الإلكتروني، سقف حبه ليطلب الوحدة مع الروس:

ما أجمل أن تكون سوريا جزءاً لا يتجزّأ من بلاد الصقيع والفودكا والموسيقى الجميلة.

ما أجمل أن تكون سوريا قطعة من كبد روسيا.

ما أجمل لو أن الروس تدخّلوا في سوريا منذ القرن السابع،

حين جاءت خيل الجنوب تبحث عن العسل والخمر ونساء شقراوات!

إنها حربٌ مقدّسة؟؟

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

3ayn-almadina.com
info@3ayn-almadina.com

@3aynAlmadina
/3aynAlmadina

ريف دير الزور الشرقي - عدسة نسيم